الشكر

«الأفخارستيا»
نشأته والأدوار التي مر بها

بقلم
عوض سمعان

الشكر

"الأفخارستيا"

نشأته والأدوار التي مر بها

بقلم

عوض سمعان

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ـ ٨٦٤٨٧١

رقم الإيداع بدار الكتب ٤١٨٢ / ١٩٧٠

مقدمة

كلمة «الشكر» بالعربية أو الأفخارستيا باليونانية ، تستعمل في الأوساط المسيحية للدلالة على الشكر الذى يرفع لله عند القيام بالعشاء الربانى . وإن كان المسيحيون جميعاً يؤدون هذا الشكر بكل تجلة واحترام ، غير أنهم ينقسمون من جهة كيفية تأديته إلى فريقين :

فالفريق الأول يقول إن هذا الشكر يجب أن يكون ارتجاليا بإرشاد الروح القدس . والفريق الثانى يقول إن الشكر المذكور يجب أن يسير وفق القداس المستعمل منذ مئات السنين ، وإن كل شكر سواه يكون باطلا .

ولما كان الاختلاف بين الفريقين كبيراً ، درست الحجج التى يبنى عليها كل منهما رأيه ، كما درست الكتاب المقدس وما عثرت عليه من كتب تاريخية عن الشكر ، الذى كان يستعمل عند القيام بالعشاء الربانى، فى العصور السابقة . فأسفرت الدراسة عن إصدار هذا الكتاب .

وإنى إذ أقدمه الآن للقراء ، أرجو الرب أن يرافقه بنعمته لأجل مجده وخير نفوسهم العزيزة .

المؤلف

موضوعات الكتاب

أخطاء مطبعية وصوابها

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٢٢	٦	التوزيع	التوزيع
٣٥	١٢	ويديروتهم	ويديروهم
٧٥	١٢	يطل	يظل
٦٣	٩	غير	غيرهم
٧٧	٤	العرض	الغرض
٧٩	٢	ابأبأعمال	اباعمال
١١٣	٢٣	فى	فى انجلترا

١

نشأة « الشكر »

أولا — الآيات الخاصة بإقامة المسيح للعشاء الرباني

قال متى البشير « وفيما هم يأكلون الفصح ، أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر[١] وأعطى التلاميذ ، وقال لهم : خذوا كلوا هذا هو جسدي[٢] . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا : إشربوا

(١) كان الخبز المستعمل في عصر المسيح رقيقاً مجففاً كالرقاق عندنا ، ولذلك لم يكن يقطع بل يكسر . ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة أن الفعل المستعمل هنا هو « كسر » وليس « كسّر » (بوجود شدة على حرف السين) ، إذ أنه ذات الفعل المستعمل في (تكوين ٣٦ : ١٥ وخروج ٢٢ : ١٩ ومزمور ١٠٧ : ١٦) . ولذلك فإن المسيح لم يكسر رغيف الخبز إلى أجزاء ثم قدمها إلى تلاميذه ، بل قدم لهم الرغيف بعد كسره إياه ، لكي يأخذ كل منهم جزءاً بنفسه .

(٢) إن المسيح لم يقصد بقوله هذا أن الخبز المذكور تحول إلى ذات جسده ، أو بالحري إلى ذات شخصه ، وذلك للأسباب الآتية : (أ) إن المسيح ليس طعاماً ماديا نأكله بالفم ويمضي إلى المعدة والأمعاء ، بل هو طعام روحي نستقبله في النفس ونتغذى به فيها . (ب) إن المسيح عند ما تجسد ، لم يتحول ناسوته إلى لاهوت أو لاهوته إلى ناسوت ، بل ظل كل منهما كما هو . ومن ثم لا يمكن أن يتحول العشاء الرباني إلى ذات المسيح على الإطلاق (ح) ان القول بتحول العشاء الرباني الذي يعمله المسيحيون في كل العصور والبلاد ، إلى جسد المسيح فعلا ، يترتب عليه وجود ملايين من ناسوت المسيح ، والحال إنه لا يوجد للمسيح سوى ناسوت واحد ، هو الذي

منها كلكم . لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد ، الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » (٢٦ : ٢٦ – ٢٨) .

٢ — وقال مرقس البشير « وفيما هم يأكلون ، أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم وقال : خذوا كلوا هذا هو جسدي . ثم أخذ الكأس وشكر[1] وأعطاهم فشربوا منها كلهم . وقال لهم: هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين » (١٤ : ٢٢ — ٢٤) .

٣ — وقال لوقا البشير « وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلا . هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم ، اصنعوا هذا لذكرى . وكذلك الكأس أيضا بعد العشاء (أي أنه شكر أيضا عندما أخذها) . قائلا : هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم » (٢٢ : ١٩ — ٢٠) .

٤ — وقال بولس الرسول « إن الرب يسوع في الليلة التي

= ولدبه من العذراء وصعد به بعد القيامة إلى السماء . أما السبب في عدم قول المسيح عن الخبز « هذا يمثل جسدي » ، أو غير ذلك من التعبيرات المشابهة ، فيرجع إلى أن هذه التعبيرات (كما يقول العلماء) لم تكن مستعملة كثيراً في اللغات القديمة التي كتب بها الكتاب المقدس (اقرأ مثلا : Adam Clarke's— (Matthew : 26 & Eucharist P. 22) . وهذا هو الحال في اللغة العربية أيضاً ، فنحن نقول عن شخص ما « هذا أسد » أو « هذا يكون أسداً » ، دون أن نستعمل كلمة « يمثل » او ماشا كلها .

(١) إن المسيح شكر ، ليس بوصفه « الله » ، بل بوصفه « الإنسان »

أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال : هذا هو جسدى المكسور لأجلكم . اصنعوا هذا لذكرى . وكذلك الكأس أيضا بعد ما تعشوا قائلا : هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى . اصنعوا هـذا كلما شربتم لذكرى » (١ كورنثوس ١١ : ٢٣ - ٢٦) ، أى أنه شكر أيضا عندما أخذها .

ثانيا - الغرض من القيام بالعشاء الربانى

بالتأمل فى هذه الآيات وغيرها من الآيات الخاصة بالعشاء الربانى ، نرى أن الغرض من القيام به ينحصر فيما يلى :

١ - تذكر المسيح : فقد قال المسيح عندما أعطى تلاميذه الخبز والخمر « اصنعوا هذا لذكرى » (لوقا ٢٢ : ١١) .

٢ - إعلان موت المسيح : فقد قال الرسول « فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجىء » (١ كورنثوس ١١ : ٢٦) .

٣ - الاشتراك الروحى فى الفوائد الناتجة مع سفك دم المسيح وبذل جسده . فقد قال الرسول « كأس البركة التى نباركها، أليست هى شركة دم المسيح . الخبز الذى نكسره ، أليس هو شركة جسد المسيح » (١ كورنثوس ١٠ : ١٦) .

٤ - الوجود فى حالة الانتظار لعودة المسيح من السماء : فقد قال الرسول « فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس ، تخبرون بموت الرب إلى أن يجىء » ١ (كورنثوس ١١ : ٢٦).

٥ — الاعتراف بوحدة المؤمنين الحقيقيين فى كل العالم : فقد قال الرسول « نحن الكثيرين خبز واحد ، جسد واحد . لأننا جميعا نشترك فى الخبز الواحد » (١ كورنثوس ١٠ : ١٧) .

ومهما بحثنا فى الكتاب المقدس ، لانجد آية واحدة تدل على أن العشاء الربانى يعطى لمغفرة الخطايا ، أو لمنح الحياة الابدية ، كما يقول بعض المسيحيين .

الاعتراضات والرد عليها

١ — [عندما أعطى المسيح تلاميذه الكأس ، قال لهم : « إشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد ، الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » ، ولذلك فالتناول من العشاء الربانى يغفر الخطايا] .

الرد : إن مغفرة الخطايا (كما يتضح من هذه الآية) متعلقة ليس بالخمر التى كانت فى الكأس ، بل بدم المسيح الذى كان يجرى فى جسمه وقتئذ ، لأن هذا هو الذى كان عتيداً أن يسفك على الصليب . أما الخمر التى كانت فى الكأس ، فقد شربها التلاميذ ونزلت إلى جوفهم . ومغفرة الخطايا تتوقف أولا وأخيراً ، على دم المسيح الذى سفك على الصليب ، لأن المسيح بموته هناك وفى كل مطالب عدالة الله من نحونا . وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة الثمينة، فقال عن المسيح «الذى فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته » (أفسس ١ : ٧) . كما قال عنه « الذى لنا فيه الفداء

بدمه ، غفران الخطايا » (كولوسى ١ : ١٤) . والسبيل للتمتع بهذا الغفران ، ليس هو التناول من العشاء الربانى ، بل هو الإيمان (أو بالحرى الإيمان القلبى الحى الحقيقى) بالمسيح. فمكتوب « أن كل من يؤمن[1] به ، ينال باسمه غفران الخطايا » (أعمال ١٠ : ٤٢) ، ومكتوب أيضا : حتى ينالوا بالإيمان بالمسيح غفران الخطايا ونصيبا مع المقدسين (أعمال٢٦ : ١٨) .

٢ — [إن المسيح قال لنا « من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية ، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير » (يوحنا ٦ : ٥٤) ؛ ومن ثم يكون التناول من العشاء الربانى هو السبيل للتمتع بهذه الحياة] .

الرد : إن حديث المسيح هذا ليس خاصا بالعشاء الربانى ، بل بالإيمان الحقيقى بشخصه فاديا ومخلصا ، وذلك للأسباب الآتية :

---

(١) مما تجدر الإشارة إليه أن هناك فرقاً كبيراً بين ثمن الغفران والسبيل إلى الحصول عليه . فثمن الغفران (الذى لا ثمن سواه) هو دم المسيح الكريم . والسبيل الوحيد للحصول على الغفران هو الإيمان الحقيقى بالمسيح ، ذلك لأن المسيح بموته على الصليب وفى كل مطالب عدالة الله من نحونا، ومن ثم صار الغفران والحياة الأبدية هبة مجانية لكل من يؤمن به إيماناً حقيقياً (روميه ٣ : ٢٤ ، افسس ٢ : ٨ ـ ٩) — والايمان الحقيقى ليس مجرد الاعتراف بالمسيح، أو حفظ أقواله ، أو محاولة السير فى سبيله ، أو الغيرة على اسمه ، بل انه قبل كل شىء ، هو تفتح النفس لله وثقتها فى خلاصه الذى عمله فى المسيح ثقة تملؤها سلاماً واطمئناناً ، وتؤهلها بعمل الروح القدس فيها للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية ، كما ذكرنا بالتفصيل فى كتاب « طريق الخلاص »

(١) إن السبيل إلى الحياة الأبدية الذى لا يقبل تأويلا ما ، والذى يعلنه الوحى فى كل سفر من أسفاره بكل وضوح وجلاء ، هو الإيمان بالمسيح ، أو بالحرى الإيمان القلبى الحى الحقيقى بشخصه. فقد قال المسيح « هكذا احب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الابدية » (يوحنا ٣ : ١٦) . كما قال « كل من يؤمن بالابن ، تكون له الحياة الابدية . وأنا أقيمه فى اليوم الاخير » (يوحنا ٦ : ٤) . وبما أنه لا يمكن أن يكون هناك سبيلان مختلفان للحصول على الحياة الابدية الواحدة . أحدهما بواسطة الإيمان الحقيقى بالمسيح ، والثانى بواسطة الأكل من جسده والشرب من دمه بالفم تحت شكلى الخبز والخمر (كما يقول بعض المسيحيين) ، إذاً فالاكل من جسد المسيح والشرب من دمه الوارد فى (يوحنا ٦ : ٥٤) ، هو بعينه الإيمان الحقيقى بشخصه، إنما بأسلوب مجازى. وذلك للدلالة على أن الإيمان الحقيقى بالمسيح ، هو قبول شخصه فى النفس مثل قبول الطعام فى الجوف . لأنه كما أن الإنسان لا يفيد من الطعام إلا إذا قبله فى جوفه ، كذلك لا يمكن ان يفيد من المسيح إلاّ إذا قبله فى نفسه . ومما يثبت ذلك أن المسيح قال فى (ع ٣٥) « من يقبل إلى فلا يجوع ، ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً » ، مشبها الإقبال إليه والإيمان القلبي به ، بالأكل والشرب . ونوال الحياة الأبدية ، بالشبع والارتواء .

ولا غرابة فى ذلك على الإطـلاق ، فالاختبار العملى إلى

جانب الآيات التى ذكرناها ، يدل على أن الحياة الابدية هى فقط بواسطة الإيمان الحقيقى بالمسيح . لأننا نرى كثيرين من الذين يواظبون على التناول من العشاء الربانى كل يوم أو كل أسبوع ، يحيون حياة بعيدة عن الله كل البعد . بينما نرى المؤمنين الحقيقيين (أو بالحرى الذين قبلوا المسيح فى نفوسهم) فى كل الطوائف المسيحية دون استثناء ، يحيون حياة التقوى والقداسة ، الأمر الذى يدل على أنهم من أناس الله القديسين ، وأن لهم حياته الإلهية الابدية .

(ب) فضلا عن ذلك ، فإن المسيح (أولا) لم يكن يتحدث قبل الآية الواردة فى (يوحنا ٦ : ٥٤) عن العشاء الربانى ، بل عن الإيمان بشخصه. فقد قال قبلها «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذى أرسله » . كما قال « إن كل من يرى الابن ويؤمن به ، تكون له الحياة الابدية . وأنا أقيمه فى اليوم الاخير » (يوحنا ٦:٢٩، ٤٠) . (ثانيا) إنه نطق بالعبارة الخاصة بالأكل من جسده والشرب من دمه للحصول على الحياة الابدية ، فى أوائل خدمته الروحية بين الناس ، بينما أقام العشاء الربانى قبيل صلبه بساعات . وليس من المعقول أنه كان يتحدث مع الناس فى أوائل خدمته عن موضوع لم يكن قد أعلن لهم شيئا عنه بعد ، لكن من المعقول أنه كان يتحدث معهم وقتئذ عن وجوب الإيمان به ، لأن هذا الموضوع هو الذى يتناسب مع أوائل خدمته بينهم . (ثالثا) إن معظم الذين وجّـه المسيح إليهم العبارة المذكورة ، كانوا غير

مؤمنين او مؤمنين بالاسم (يوحنا ٦ : ١٣ ، ٤١ - ٤٢). وأمثال هؤلاء ، لا يتحدث المسيح معهم عن العشاء الربانى بل عن الإيمان بشخصه ، لأن ممارسة هذا العشاء خاصة بالمؤمنين الحقيقيين ، إذ أن هؤلاء وحدهم هم الذين يقدرون عظمة كفارة المسيح ويعرفون فوائدها المتعددة — ولذلك تكون الآية التى نحن بصددها خاصة بالحث على الإيمان الحقيقى بالمسيح ، أو بالحرى على قبول شخصه فاديا ومخلصا فى النفس ، حتى تحيا به إلى الأبد ، كما ذكرنا .

(ح) وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المسيح (أولا) ختم حديثه عن الأكل من جسده والشرب من دمه (الوارد فى يوحنا٦) بالقول: « ولكن منكم قوم لايؤمنون » ، وقد علق الرسول على هذه الآية بالقول : « لأن يسوع علم من البدء من هم الذين لا يؤمنون، ومن هو الذى يسلمه » (٦: ٦٤—٦٥)، وليس : لأن يسوع علم من البدء من هم الذين لا يأكلون جسده ولايشربون دمه بالمعنى الحرفى المفهوم لدى بعض المسيحيين. (ثانيا) إنه عندما وجد بعض تلاميذه ينصرفون من حوله ، تركهم وشأنهم — وتصرفه هذا لا يعلل إلا بأنهم رفضوا الإيمان به ربا ومخلصا لهم(١) . إذ لو كان انصرافهم عنه

---

(١) ويرجع السبب فى رفضهم الإيمان به ، إلى اعلانه عن نفسه انه ابن الله باللاهوت ، وانه نزل إلى الأرض بالتجسد (ع ٣٢ - ٣٧) ، وانه سيبذل جسده ويسفك دمه كفارة عن الخطايا . ومن ثم يجب أن يكون موضع إيمان قلوبهم على هذين الاعتبارين لينالوا الحياة الأبدية (ع ٤٨ - ٥٨)-بينما لم تكن عقيدتهم من جهة المسيح الذى كانوا ينتظرونه إلا أنه مجرد انسان، وأنه يملك ولايموت =

راجعا إلى اعتقادهم أنه كان يطلب منهم الأكل من جسده والشرب من دمه بالمعنى الحرفى، لكان قد أعلن لهم خطأهم فى فهم أقواله، ونبههم إلى أن جسده ودمه اللذين طلب منهم الأكل والشرب منهما، سيكونان تحت شكلى الخبز والخمر (كما يقول المسيحيون المذكورون)، حتى يظلوا معه ويفيدوا منه. (ثالثا) إن بطرس الرسول عندما قال للمسيح «يارب إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنك أنت المسيح ابن الله الحى» (٦ : ٦٩)، اكتفى المسيح باجابته. بينما لو كان حديثه عن الأكل من جسده والشرب من دمه يراد به تناولهما بالفم تحت أى شكل من الأشكال، لرفض إجابة بطرس لأنها تكون خارجة عن الموضوع، بل وتكون تهربا من الاستجابة لما كان المسيح يطلب منه ومن غيره وقتئذ — ولذلك لا مجال للشك فى أن المسيح كان يقصد بالأكل من جسده والشرب من دمه وقتئذ اتخاذه، عن طريق الإيمان الحقيقى به فى القلب، مخلصا وفاديا كما ذكرنا

(د) هذا، وقد أدرك علماء الأرثوذكس والكاثوليك فى القرون الأولى، أن حديث المسيح عن التغذى بجسده ودمه الوارد فى (يوحنا ٦)، يراد به المعنى المجازى أو بالحرى الإيمان القلبى بشخصه. فمن المأثور عن يوسابيوس القيصرى أنه ذكر فى شرحه لقول المسيح «الكلام الذى أكلمكم به، هو روح وحياة»: كأن المسيح يقول

= يوحنا ١٢ : ٣٢)، وأن الحياة الأبدية تمنح ليس بواسطة الإيمان به، بل بواسطة الإيمان بالله (يوحنا ٢٠ : ٢٧ — ٣٣)

لتلاميذه ، لا تظنوا إنى أتكلم معكم عن الجسد الذى أنا حامله ، كأن هذا يجب أن يؤكل ، ولا تظنوا إنى أقدم لكم دمى الطبيعى لكى تشربوه ، لكن اعلموا أن الكلمات نفسها التى كلمتكم بها هى روح وحياة ، حتى أن ذات كلامى هو لحم ودم ، والذى يخصصه لنفسه يقتات كما بطعام سماوى ، ويكون شريكا فى الحياة السماوية .

ومن المأثور عن أوغسطينوس أنه قال : إن حديث المسيح عن الأكل من جسده والشرب من دمه لا يجوز فهمه حرفيا ، لأن نعمته لا تقبل بالإسنان . وعن اثناسيوس الرسولى أنه قال : إن التناول من جسد المسيح ودمه لا يكون إلا روحيا — أى أن هذا التناول لا يكون بالفم مع الاعتقاد فى النفس بأن الخبز والخمر هما ذات جسد المسيح ودمه . بل إن التناول المذكور يكون روحيا. أى باستقبال النفس (وليس بالفم) له — (اقرأ نظام التعليم ص ٤٤٥ ، وريحانة النفوس ص ٨٧ ، وشرح كلمة « Eucharist » فى دوائر المعارف الإنجليزية) .

فضلا عن ذلك ، فإن أحرار الفكر من الكاثوليك فى العصر الحديث عرفوا أن الأكل من جسد المسيح والشرب من دمه الوارد في (يوحنا ٦) ، خاص بالإيمان بالمسيح . فقد قال البرتينوس (مثلا) في كتابه « D' Euchariste » إن إثنين من الباباوات ، وأربعة من الكرادلة ، وخمسة من الأساقفة ، وبعض علماء اللاهوت الذين ظهروا لغاية السنة التى عاش فيها ، نادوا بأن حديث المسيح الوارد فى (يوحنا ٦) خاص بالإيمان

بشخصه »(١) .

ثالثا ـ معنى « المباركة » فى اقامة المسيح للعشاء الربانى

١ ــ يتضح من دراسة الايات الخاصة باقامة المسيح للعشاء الربانى التى ذكرناها فى أوائل هذا الفصل ، أن كلمة « بارك » فى الآيات الواردة فى « بندى (١ و ٢) ، مرادفة لكلمة « شكر » الواردة فى هذه الايات . كما أنها مرادفة أيضا لكلمة « شكر » فى الايات الواردة فى بندى (٣ و ٤) ــ ومن ثم لا يكون معنى كلمة (بارك) هنا ، أن المسيح أودع بركة فى الخبز (كما يعتقد بعض المسيحيين) ، بل يكون معناها أنه « شكر » ، والدليلان الاتيان يؤيدان هذه الحقيقة كل التأييد :

(أ) إن الوحى لا يقول عن المسيح إنه « بارك الخبز » ، بل قال فقط إنه « بارك » بدون أى مفعول بعد ذلك . ومن ثم يكون المراد بهذه الكلمة هنا أن المسيح « بارك الله » ، لأن حذف المعلوم جائز . والقول « بارك الله » معناه « شكر الله » فقول داود النبي « باركى يا نفسى الرب » (مزمور ١٠٣ : ١) معناه «اشكرى يا نفسى الرب » . وقد شهد العلماء بهذه الحقيقة فقالوا : إن الشكر فى اليونانية يقابله المباركة فى العبرية .

(ب) إن مباركة الخبز [بمعنى إيداع نعمة الحياة الأبدية فيه ، لكى تنتقل إلى نفس من يتناول منه (كما يعتقد بعض

---

(١) عن كتاب : The Sacrament of Eucharist By Bellarmine

المسيحيين) ، ليس لها أساس في الكتاب المقدس ، وذلك لسببين (الأول) إن نعمة الحياة الأبدية تنتقل من الله إلى نفوس الناس مباشرة عندما يؤمنون إيمانا حقيقيا بالمسيح . فقد قال له المجد « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يوحنا ١٦:٣) . كما قال « من يؤمن بي، فله حياة أبدية» (يوحنا ٤٦:٦) . (الثاني) ان الغرض من مباركة المادة (كما يتضح من خروج ٢٥:٢٣)، هو حفظها من الآفات التي يمكن أن تفتك بها ، أو زيادة كميتها بطريقة معجزية حتى يستطيع كثيرون أن يفيدوا منها (مزمور ١٣٢ : ١٥) . وبما أنه عند إقامة العشاء الرباني لم يكن هناك داع لأن يبارك المسيح الخبز بهذين المعنيين أو أحدهما ، لأن التلاميذ كانوا مزمعين أن يتناولوه في الحال . كما أنهم لم يكونوا وقتئذ أكثر من ١١ شخصا(١) ، وكان كل منهم مزمعا أن يأخذ قدراً صغيراً من الخبز والخمر كتذكار لاشتراكه في الفوائد الروحية المؤسسة على بذل المسيح لجسده وسفكه لدمه . وليس لملء بطنه أوسد رمقه (١ كورنثوس ١١ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٤) ، لذلك يكون معنى المباركة هنا ، هو الشكر وحده كما ذكرنا .

٢ — أما الاعتراض [إن المباركة هنا يراد بها ايداع بركة ،

---

(١) لان المسيح (كما يتضح من يوحنا ١٣ : ٢٧) ، كان قد صرف يهوذا الاسخريوطي قبل اقامة العشاء الرباني — وتصرفه هذا دليل واضح على وجوب عدم اشتراك المؤمنين بالاسم في عشائه هذا، مهما كانت مراكزهم الدينية او الاجتماعية

لأن الرسول قال « كأس البركة التى نباركها ، أليست هى شركة دم المسيح ؟ »] فلا نصيب له من الصواب ، للاسباب الآتية :

(ا) إن الرسول (كما يتضح من باقى الآية الواردة فى الاعتراض) خصّ الكأس دون الخبز بالمباركة ، فقال « الكأس التى نباركها » . وقال بعد ذلك «الخبز الذى نكسره» (١ كورنثوس ١٠ : ١٦ — ١٧) . وليس من المعقول أن تكون الكأس فيها بركة (بمعنى نعمة روحية) دون الخبز ، إذ أن الكأس والخبز هما تذكار واحد للمسيح . ومما لا يدع مجالا للشك ، فى أن البركة هنا لا يراد بها إلا الشكر كما ذكرنا فيما سلف ، وأن « كأس البركة » لا يراد بها تبعا لذلك إلا « كأس الشكر » ، أن الكأس التى كان اليهود يتناولونها فى عيـــد الفصح كانت تسمى « هارباراكا » أى « كأس البركة » . وقد أشار إلى هذه الحقيقة أرثوذكسى مشهور (هو الدكتور جورج عقداوى) فى ترجمته لكتاب (حياة المسيح) ، للدكتور فردريك فارار ص : ٦٨٩ ، مع أنه لم يكن هناك بين اليهود من يظن أن الخمر التى كانت توضع فى الكأس المذكورة تتحول إلى شىء فيه نعمة روحية . وإذا كان ذلك كذلك ، فقول الرسول عن كأس العشاء الربانى إنها « كأس البركة » ، لا يراد به إلا أنها « كأس الشكر » كما ذكرنا .

(ب) إن كثيرين من المفسرين الأرثوذكس ، وفى مقدمتهم الأستاذ ترمبلاس ، أحد علماء الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ،

قالوا « نبارك الكأس : أى نقدسها بصلاة شكر » (تفسيره حـ ١ ص ٢١٨)[1] — ولكى يتضح لنا المراد بكلمة « نقدسها » هذه نقول : نظراً لأن المادة (مثل الخبز والخمر) ليست نجسة أو طاهرة ، لأن النجاسة هى التلوث بالخطيئة ، والطهارة هى الخلو منها ، والمادة لاشأن لها بالخطيئة على الإطلاق ، لذلك فتقديس المادة ، لايراد به إلا تكريسها أو تخصيصها لعمل ما . لأن التقديس كما يعنى التكميل والتطهير (عبرانيين ١٣ : ١٢ ، ١٠ : ١٠ ، ١٤ ، ١ : ٣ ، ٢ : ١١) يعنى أيضا التخصيص . فأوانى الهيكل فى العهد القديم (مثلا) كانت مقدسة ، ليس بمعنى أنها خالية من الخطيئة أو فيها بركة ، بل بمعنى أنها كانت مخصصة لخدمة الله فى العهد المذكور (خروج ٤٠ : ٩) . ومن ثم يكون المراد [بتقديس كأس العشاء الربانى بالصلاة ، فى العبارة المقتبسة من أقوال اترمبلاس] ، هو تخصيصها بالصلاة لتكون تذكاراً كريما لموت المسيح ـ تذكاراً له قدره ومكانته فى النفوس . وذلك بناء على قول المسيح « اصنعوا هذا لذكرى » (لوقا ٢٢ : ١٩ — ٢٠) .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيح ، قبل تقديم خبز العشاء الربانى لتلاميذه ، بارك (بمعنى شكر) كما اتضح لنا مما سلف ، لا يبقى هناك مجال للشك فى أن « كأس البركة » يراد بها « كأس الشكر » كما ذكرنا ، لأن الخبز والخمر معا هما تذكار واحد للمسيح .

(حـ) فضلا عما تقدم فإن « المباركة » لا ترد بمعنى الشكر

(١) هذه العبارة قدمها للمؤلف ، الخورى جرمانوس لطفى

فحسب . بل ترد أيضا بمعنى « المديح » ، وذلك كما جاء فى :
(Greek — English Exhaustive Analgrical Lexicon) ،
كما هى الحال فى لغتنا العربية . فنحن نقول (مثلا) « بارك الشعب المشروع الفلانى » ، أى رحّب به ومدحه — وإذا كان ذلك كذلك ، أدركنا أن القول « الكأس التى نباركها » ، يمكن أن يكون المراد به أيضا « الكأس التى نقدّرها ونشيد بها لما تدل عليه من معنى » ، وهذا المعنى (كما نعلم) هو فداء المسيح لنا ، الذى نعتز به جميعا أكثر من أى شىء فى الوجود .

رابعا — نوع الصلاة التى ترفع لله عند القيام بالعشاء الربانى

١ — مما تقدم يتضح لنا أن الصلاة التى ترفع لله عند القيام بالعشاء الربانى ، يجب أن تكون شكراً ، وشكراً فحسب . ومجال الشكر لأجل عمل الفداء الذى يشير إليه هذا العشاء ، واسع الأرجاء ، ولا ينضب معينه على الإطلاق . لأن اخلاء « ابن الله » لنفسه واتخاذه صورة عبد (فيلبى ٢ : ٦) ، وموته على الصليب نيابة عنا لكى لا نأتى إلى دينونة بل تكون لنا الحياة الأبدية (يوحنا ٣ : ١٦) ، ونكون أيضا أحباء لله وأولاداً له (١ يوحنا ٣ : ١) ، ومسكنا وهيكلا للروح القدس (١ كورنثوس ٦ : ١٩) ، وبمثابة جسد المسيح وعروسه الروحية ، أو بالحرى أغلى من كل شىء لديه (أفسس ١ : ٢٣ ، ٥ : ٢٥) — كل هذه بركات تفوق العقل والإدراك . ومهما شكرنا الله من أجلها ، لا يكون شكرنا بالنسبة إلى ما يجب أن يكون عليه ، بأكثر من ذرة

بالنسبة إلى الكون المترامي الأطراف .

٢ – ولما كان الشكر دليلا على السرور ، وكان التسبيح من أهم علامات السرور ، كما يتضح من (يعقوب ٥ : ١٧) ، كان من البديهي أن يقترن الشكر الذي رفعه المسيح عند إقامة العشاء الرباني بالتسبيح[1] . وهذا هو ما حدث فعلا ، فمكتوب أنه (بوصفه الإنسان) سبح هو وتلاميذه (متى ٢٦ : ٢٦ — ٣٠) .

وطبعا ما كان المسيح ليسبح ، أو بالحرى ليفرح ويسر ، عند إقامة العشاء الذي نحن بصدده ، لولا أنه يحبنا نحن الخطاة ، محبة لا حد لها — وأنه يحبنا محبة لاحد لها ليس لأننا نحبه أو لأننا نستحق محبته ، بل لأنه هو المحبة بعينها (٢ يوحنا ٤ : ٨) . إذ من شأن المحبة ألا تشع سوى المحبة ، مهما كانت حالة الناس الذين تتجه إليهم .

وإذا كان الأمر كذلك ، يجب أن نكون عند ممارسة هذا العشاء في حالة الفرح الروحي[2] ، لأننا نذكر وقتئذ ليس فقط محبة المسيح الفائقة المعرفة التي أحبنا بها كما مر بنا ، بل لأننا أيضا لا نذكر مسيحا ميتا (حتى كان يتطلب الامر أن نبكي ونلبس ثوب

---

(١) يراد بالتسبيح، الشكر المنظوم المقدم لله،أما الترنيم فيراد به التغنى بأفضال الله

(٢) أما اعترافنا بما نكون قد أخذنا فيه من زلات ، وتذللنا أمام الله ليرفعها عن كاهلنا ، ويرد لنا بهجة خلاصه ، ويعضدنا بروحه للتحفظ منها فيما بعد ، فيكون بيننا وبينه فحسب ، وذلك عند امتحاننا لانفسنا قبل قيامنا بممارسة عشائه ، كما سيتضح من الفصل التالي .

الحداد) ، بل نذكر مسيحاً بعد ما مات ، قام بقوة حياة لا تزول (عبرانيين ٧ : ١٦) . وإذا حدث أن ارتسمت أمامنا فى ذلك الوقت خطايانا السالفة ، وما كنا نستحقه من عذاب أبدى بسببها ، يجب أن نذكر فى الحال خلاصنا منها ومن عذابها ، وصيرورتنا تبعاً لذلك أبراراً فى المسيح إلى أبد الآبدين (روميه ٥ : ١) ، فيتحول حزننا إلى فرح ، وأنيننا إلى شكر وحمد لله .

٣ — أخيراً نقول : حقاً يجب أن نصلى كثيراً من أجل كل الناس، وبصفة خاصة من أجل الخطاة والضالين، والمرضى والمتألمين، والفقراء والمحتاجين ، والارامل والايتام ، سواء أكانوا من الاصدقاء أم غير الاصدقاء ، كما أوصانا الوحى أن نفعل ذلك فى اجتماعات الصلاة الخاصة (١ تيموثاوس ٢: ١—٢ ، متى ٥ :٤٤) ، لكن فى اجتماعات العشاء الربانى ، يجب أن يكون موقفنا فقط موقف الشكر والتسبيح لله كما ذكرنا .

أما الدعوى [بأن من الواجب أن نصلى من أجل كل هؤلاء الناس عند ممارسة العشاء الربانى ، بصفة خاصة] ، فلا مجال لها على الإطلاق . لأن هذه الدعوى لا ترجع فى الواقع إلى اهتمام قائليها بالآخرين ، بل إلى عدم تركيز أفكارهم كلها فى محبة المسيح . لكن عرفوا أم لم يعرفوا ، إن لحقّ الآخرين علينا وقتا ، ولحقّ الرب علينا وقتا غيره . فضلا عن ذلك ، ليس هناك شخص يمكن أن يحب الآخرين ويهتم بهم باخلاص ، إلا إذا كان يحب الرب أولا محبة صادقة ، إذ لا يعقل أن يحب أحدنا إنسانا غيره ، وهو لا يحب

المسيح الذى مات على الصليب نيابة عنه ، بهذه المحبة — فعند ممارسة العشاء الربانى ، يجب أن تتركز إذاً كل أفكارنا فى المسيح وعمله الفدائى الكريم ، كما يجب أن نكسر كل ما لدينا من قوارير الطيب (أو بالحرى : الشكر العطر) عند قدميه الكريمتين ، حتى إذا اعترض علينا المدعون بأنهم يهتمون بالفقراء والمحتاجين . (يوحنا ١٢ : ١ — ٨)

خامسا - السبب فى عدم تسجيل الوحى لعبارات الشكر التى نطق بها المسيح

١ — كنا نود أن نعرف العبارات التى استعملها المسيح فى الشكر عند تأسيس العشاء الربانى ، لكن يبدو أن الوحى لم يسجلها خشية أن نستعملها هى بذاتها عند قيامنا بهذا العشاء ، فيصبح شكرنا عملا آليا بعيداً عن قيادة الروح القدس . إذ أن العبادة فى العهد الجديد الذى نعيش فيه الآن ، هى عبادة روحية محضة ، مصدرها ليس ما لدينا من محفوظات دينية ، بل مصدرها الروح القدس وحده . فهو الذى ينشئها فى كل مرة جديدة ، من أقوال الوحى الإلهى المناسبة للمقام ، كما يتضح فى الفصل التالى .

٢ — غير أن الوحى ، وإن لم يسجل لنا عبارات الشكر التى نطق بها المسيح ، لكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس ، يمكن أن نستنتج أنه شكر الآب لأجل الأمور الآتية :

(ا) صلاحه الذى لا حد له ، ومحبته الفائقة المعرفة لنا نحن الخطاة المساكين ، وسروره بأن يبذله (أى يبذل المسيح) فدية عنا ، حتى لا يهلك الذين يؤمنون به إيماناً حقيقياً بل

تكون لهم الحياة الأبدية ، ويكونون أيضا بعمل الروح القدس في نفوسهم أهلا للتوافق مع الله في صفاته الادبية السامية إلى أبد الآبدين .

(ب) إخفاء الآب هذه المحبة عمن يدّعون الحكمة والفهم ، وإعلانها للأطفال (متى ١١ : ٢٥) ، أو بالحرى لمن يعتبرهم العالم أطفالا في الفهم والإدراك ، أو بالحرى جهالا وضعفاء (١ كورنثوس ١ : ٢٧ — ٢٨) .

(ح) جعل الآب جميع المؤمنين الحقيقيين واحداً في شخصه (أو بالحرى في شخص المسيح) ، الأمر الذى يدل عليه رغيف الخبز الواحد (١ كورنثوس ١٠ : ١٧) .

٣ — أما الدعوى [بأن قول الوحى عن المسيح إنه « شكر » لا يراد به أنه شكر فقط ، بل يراد به أيضاً أنه صلى إلى الله من أجل المرضى والمتألمين ، والغرباء والمسافرين ، و ... ، و ...] فهى محاولة تعسفية ، الغرض منها الإيهام بأن القداس الحالى عمل بواسطة المسيح . إذ فضلا عن أن كلمة « شكر » لا يراد بها في أى لغة من اللغات سوى المعنى الظاهرى لها ، الأمر الذى لا يدع مجالا لهذه الدعوى ، فإن تفسير هذه الكلمة بالمعنى المدّعى به يفتح باب السفسطة ، إذ يدع البعض يفسرون أى قول أو عمل للمسيح بما يروق لهم ، الامر الذى لا يوافق عليه أى مؤمن حقيقى على الإطلاق .

سادسا - الطريقة التى اقام المسيح بها عشاءه

إذا رجعنا إلى الأصحاحات الخاصة بتأسيس العشاء الربانى ،

لا نرى أن المسيح أقام مذبحا أو ارتدى لباسا خاصا ، بل أقام عشاءه على مائدة عادية وبملابسه العادية . كما أنه لم يستعمل بخوراً وشموعا أو دفوفا وصنوجا، أو قام بحركات تمثل حقائق دينية أياً كان نوعها ، بل قام بالعشاء المذكور بواسطة تقديم شكر خالص لله ، مجرد من هذه المظاهر جميعا . فضلا عن ذلك ،لم يعط شيئاً من الخبز والخمر بيده لكل واحد من تلاميذه على حدة (كما هو متبع عند بعض المسيحيين في الوقت الحاضر) ، بل أعطاهم معا كل الخبز والخمر ، لـكي يأكلوا ويشربوا هم فيما بينهم ، لأن هذا هو ما يفهم من قوله لهم عن الخبز : « خذوا كلوا (أى كلوا كلكم) ... واشربوا منها (أى من الكأس) كلكم » (متى ٢٦ : ٢٦ و ٢٧) .

وقد شهد بهذه الحقيقة كثير من الشراح (إقرأ مثلا : تفسير آدم كلارك لبشارة متى ص: ٢٦) ، الامر الذى يدل على أن المسيح لم يقصد بالعشاء الذى أقامه ذبيحة ما ، أو وضع أساساً للقداسات الموجودة في الوقت الحاضر .

٢

الشكر فى العصر الرسولى

نرى من الواجب قبل التحدث عن هذا الموضوع ، أن نسجل هنا أن العبادة المسيحية تختلف كل الاختلاف عن العبادة اليهودية ، فالثانية كانت طقسية (أو بالحرى جسدية) : فالعين كانت ترى المذبح والذبيحة ، واليد كانت تلمس كلاً منهما ، والأنف كانت تشم البخور وتدرك رائحته . أما العبادة المسيحية فروحية (أى تمارس بالروح) ، فبالإيمان ندرك كفاية كفارة المسيح ، وبه ندرك أيضاً أننا مقبولون كل القبول أمام الله ، على أساس كفاية هذه الكفارة . وبواسطة تأثير الروح القدس فى نفوسنا ، نرفع لله الشكر والحمد اللائقين به . كما أن اليهودية وإن كانت قد مهّدت لظهور المسيحية بنبواتها ورموزها المتعددة ، لكن المسيحية لم تتطوّر منها بل نزلت من السماء مباشرة فى شخص المسيح . فالأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار (فى المسيح) جديداً (٢ كورنثوس ٥ : ١٧) .

فالله (كما تنادى المسيحية) روح . ومن ثم فالعبادة له، تكون بالروح والحق (يوحنا ٤:٢٤). كما تكون عبادة عقلية (رومية ١:١٢) لا شكلية ، أى لا يكون أساسها الأقوال المحفوظة والحركات المنظورة ، بل الإدراك الحقيقى لعظمة الله ومحبته الفائقة المعرفة ،

والانقياد الكلى بالروح القدس فى الصلة به والوجود معه . كما أنه بالرجوع إلى الكتاب المقدس ، نراه يعلن (أولا) أنه لا يكون بعد كفارة المسيح ، قربان عن الخطية (عبرانيين ١٠ : ١٧) أياً كان نوع هذا القربان ، ذلك لأن كفارة المسيح قد وفّت جميع مطالب العدل الإلهى إلى الأبد (عبرانيين ٩ : ١٢) . (ثانياً) إن ذبائح العهد الجديد الذى نعيش فيه الآن ، هى ذبائح روحية مثل : تقديس النفس لله (رومية ١٢ : ١) ، وتقديم التسبيح له (عبرانيين ١٣ : ١٥) ، والاهتمام بأمر الفقراء والمحتاجين (عبرانيين ١٣ : ١٦) .

وما دام الأمر كذلك ، فالقول [إن العبادة المسيحية يجب أن تسير على النمط اليهودى (من حيث الهيكل والمذبح والكهنوت والطقوس) بعد صبغه بصبغة مسيحية] ، فضلا عن أنه ليس له أساس فى الكتاب المقدس ، فهو تهويد للمسيحية وعودة بها إلى الرموز الشكلية التى أصبحت بلا فائدة بعد مجىء المسيح وتقديم نفسه كفارة نيابة عنا[1] — ولذلك إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس ، نرى أن العشاء الربانى كان يمارس فى العصر الرسولى على النحو الذى رسمه المسيح ، بعيداً كل البعد عن نظم الذبائح وطقوسها ، كما يتضح مما يلى :

(١) فقد قال الرسول للمتنصرين من العبرانيين عن الهيكل اليهودى وادواته وطرق العبادة التى كانت تجرى فيه ، انها كانت موضوعة إلى وقت الاصلاح فحسب (عبرانيين ٩ : ١ — ١٠) ، ذلك لأنها لم تكن الا شبه السماويات وظلها (عبرانيين ٨ : ٥) ، التى تقدم فيها بالروح القدس عبادتنا فى العهد الجديد (عبرانيين ١٠ : ١٩) .

أولا ـ مكان ممارسة العشاء الربانى والمظهر العام لممارسته

١ — إن الرسل لم يشيدوا لممارسة العشاء الربانى بناء خاصاً يدعى هيكلا ، ولا أقاموا مذبحا من خشب أو حجر ليضعوا عليه هذا العشاء ، بل كانوا يقومون به فى بيوت عادية ، وطبعاً على موائد الطعام العادية التى فيها (أعمال ٢٠ : ٧ — ١٠) .

٢ — فضلا عن ذلك ، فإنه بالرجوع إلى الكتاب المقدس ، لا نرى دليلا على أن الرسل كانوا يلبسون ملابس كهنوتية ، أو يستعملون شموعاً وبخوراً أو طقوسا أيا كان نوعها . كما أن الخبز والخمر اللذين كانوا يستعملونهما فى هذا العشاء ، لم يكونا من نوع خاص ، بل كانا يؤخذان من الأطعمة التى كان المؤمنون يأتون بها إلى ولائم المحبة(١) (كتاب الخريدة النفيسة ح ١ ص ١٤٧) .

---

(١) كانت ولائم المحبة تعمل بواسطة المسيحيين الاوائل فى اليوم الأول من كل اسبوع . وكان يجتمع فيها الاغنياء والفقراء والوطنيون والغرباء على السواء . وأهم الاطعمة التى كان يؤتى بها الى هذه الولائم هى الخبز والنبيذ والجبن والعسل . وكان الغرض من هذه الولائم ازدياد الرابطة الاخوية والروحية بين المؤمنين ، لانهم بالاضافة الى اشتراكهم معاً فى طعام واحد ، كانوا يقضون معاً فرصاً طيبة فى الصلاة والتغذى باقوال الله . وكانت الولائم المذكورة تعمل بعد الظهر ، وكان العشاء الربانى يعمل بعدها فى المساء . غير أن اقترانها بهذا العشاء لم يستمر طويلا ، لأنه أدى الى سوء التصرف الوارد ذكره فى (١ كورنثوس ١١ : ٢٢ ـ ٣٣) . ومن ثم أخذ المؤمنون يقومون بها على حدة لغاية القرن الرابع للميلاد (موسهيم ص١٥٩) . وبعد ذلك أخذ الاهتمام بها يقل شيئاً فشيئاً ، حتى اهملت تماماً عند معظم المسيحيين

٣ ــ وبالإضافة إلى ما تقدم ، ليس هناك دليل على أنهم كانوا يقومون بالشكر عند ممارسة العشاء الربانى بنغمة خاصة ، أو كانوا يستعملون آلات موسيقية مثل الدفوف والصنوج ، أو يقسمون المؤمنين إلى فرق ككهنة وشمامسة ومرتلين ، لتقوم كل فرقة بدورها فى العبادة ، بل كانوا مع باقى المؤمنين يعبدون الله معا بنفس واحدة (أعمال ٢ : ١) ، بعيداً كل البعد عن النظم والترتيبات البشرية التى نراها الآن فى بعض الكنائس المسيحية .

ثانيا ــ عدم التفرقة بين بعض المؤمنين والبعض الآخر ، امام العشاء الربانى

فقد قال بولس الرسول للكورنثوسيين « أم تستهينون بكنيسة الله وتخجلون الذين ليس لهم (شىء من الزاد) » ؟! وقال لهم أيضا « إذاً يا إخوتى : حين تجتمعون للأكل (من عشاء الرب) انتظروا بعضكم بعضا » (١ كورنثوس ١١ : ٢٢ و ٣٣) ــ ومن هاتين الآيتين يتضح لنا ما يأتى :

١ ــ يجب أن لا يسمح بوجود أى فوارق بين بعض المؤمنين والبعض الآخر ، عند ممارسة العشاء الربانى (أو فى أى اجتماع آخر من اجتماعات العبادة) ، فإن الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، بل والواعظ والموعوظ أيضا ــ كل هؤلاء سواء . لأنهم جميعا كانوا أمواتاً بالذنوب والخطايا ومعرضين للهلاك الابدى (أفسس ٢ : ١) ، ولأنهم أيضا جميعا خلصوا من هذا الهلاك بواسطة كفارة المسيح ،

دون غيرها . فقد قال الرسول لجميع المؤمنين « بالنعمة أنتم (جميعا) مخلصون بالإيمان ، وذلك ليس منكم هو عطية الله ، ليس من أعمال كيلا يفتخر احد » (افسس ٢ : ٧) — نعم إن لأصحاب المواهب الروحية مركزاً خاصا فى التعليم والوعظ والارشاد ، لكن نظراً لأنهم فى ذواتهم، مثل باقى المؤمنين، كانوا أمواتا بالذنوب والخطايا ، لذلك من البديهى أن يقفوا معهم على قدم المساواة أمام العشاء الربانى ، لأنه تذكار لكفارة المسيح التى خلصوا بها جميعا .

٢ — ومن الواجب أيضا على جميع المشتركين في العشاء الربانى أن ينتظر بعضهم بعضا . وذلك لسببين (الاول) إن هذا العشاء يدل ، كما ذكرنا فى الفصل السابق ، على وحدة المؤمنين المعنوية فى المسيح . وهذه الوحدة تجعلهم ينتظرون بعضهم بعضا (الثانى) إن هذا العشاء أيضا ليس عشاء واحد منهم ، بل هو عشاء الرب ، وما هم إلا ضيوف لديه . والضيوف ، لاسيما الضيوف لدى الرب، يجب أن لا يأخذ أحدهم أمامه مركز الافضلية أو الاولوية على غيره .

٣ - لم يكن هناك بين المؤمنين وقتئذ كاهن ، أو شخص مسئول بصفة شخصية ، عن العشاء الربانى. لأنه لو كان هناك مثل هذا الشخص، لكان الرسول قد أوصاه وحده بأن ينتظر حتى يحضر جميع المشتركين فى هذا العشاء . إذ أن قول الرسول للمؤمنين عامة أن ينتظر بعضهم بعضا ، يدل على ان العشاء المذكور كان يوضع بين أيديهم جميعا ، وأنهم كجماعة كانوا مسئولين عن كل تصرف لايليق به . ولاغرابة

فى ذلك ، لان الرب (صاحب هذا العشاء) ليس رب فريق منهم فحسب ، بل أنه ربهم جميعاً ، ومن ثم يجب أن يكون كل منهم حريصا على طاعته وإكرامه .

أما الاعتراض [بأن تحريض الرسول لمؤمنى كورنثوس على أن ينتظر بعضهم بعضا ، خاص بولائم المحبة وليس بالعشاء الربانى ، ومن ثم ليس هناك دليل على أنه لم يكن بين المؤمنين وقتئذ شخص مسئول عن هذا العشاء] ، فلا مجال له على الإطلاق . لأن الرسول قال لهم قبل التحريض المذكور « لأنى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا . أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزاً ، وشكر فكسر وقال : خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم . اصنعوا هذا لذكرى . . . » (١ كورنثوس ١١ : ٢٣ — ٣٣) ؛ ومن ثم يكون وجوب الانتظار خاصا بالعشاء المذكور ، وليس بولائم المحبة . وتبعا لذلك لا مندحة من التسليم بأنه لم يكن بينهم وقتئذ شخص مسئول عن العشاء الربانى بصفة خاصة ، كما ذكرنا .

ثالثا ـ امتحان المؤمنين لأنفسهم قبل الاشتراك فى العشاء الربانى

فقد قال الرسول : « إذاً أىّ من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق ، يكون مجرما فى جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الإنسان نفسه، وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس، لان الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق ، يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب ودمه . من أجل ذلك فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون . لأننا لو كنا حكمنا على

أنفسنا ، لما حكم علينا . لكن إذ قد حكم علينا ، نؤدب من الرب لـكى لاندان مع العالم » (١ كورنثوس ١١ : ٢٧ — ٣٢) — ولنتأمل الان فى كل فقرة من هذه العبارة على حدة ، لنعرف معناها بكل تدقيق :

١ — « ليمتحن كل واحد نفسه » : إن الذين يتقدمون للاشتراك فى العشاء الربانى يجب أن لا يكونوا فى حالة الاستخفاف أو عدم المبالاة ، بل يجب أن يقدروا هذا الاشتراك حق قدره ، ومن ثم يجب أن يمتحنوا أنفسهم امتحانا دقيقا . فإن كان هناك وقتئذ خطأ فى سلوكهم ، أو فتور فى حياتهم الروحية ، أو اهتمام بالأمور الدنيوية ، أو عدم وجود فى حالة الوقار والحب الخالص لله ، يجب أن يعترفوا بما يرونه فى نفوسهم من نقائص . ومكتوب « إن اعترفنا بخطايانا ، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا (١)

---

(١) مما تجدر الاشارة اليه أن الوحى الالهى لايبنى الغفران على رحمة الله ومحبته فحسب ، بل وايضاً على عدالته وامانته . لأن رحمة الله توازى عدالته ومحبته توازى امانته ، وذلك بسبب كماله المطلق فى كل ناحية من النواحى — وطبعاً ما كان من الممكن أن يتحقق الغفران بواسطة عدالة الله وأمانته ، لولا ان كفارة المسيح قد حققت مطالب كل منهما إلى الأبد . وما دام الأمر كذلك ، فكل مؤمن حقيقى يحق له التمتع بالغفران الابدى والنجاة من الدينونة بواسطة الايمان الحقيقى . فقد قال الوحى « إن كل من يؤمن به ينال (الآن) باسمه غفران الخطايا » (اعمال ١٠ : ٤٣). كما قال ان من يؤمن بالمسيح فله حياة أبدية ، ولايأتى إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة (يوحناه : ٢٤). أما الغفران الذى يحتاج اليه المؤمن الحقيقى بعد الايمان (إذا أخذ فى زلة ما) ويناله بواسطة الاعتراف بخطاياه أمام الرب (كما يتضح

ويطهرنا من كل إثم » (١ يوحنا ١ : ٩) — وهذا الاعتراف يكون طبعا لله وحده(١) ، إذ أن الحجاب الذى كان يفصلنا عنه قد انشق عند الصليب (لوقا ٢٣ : ٤٥) ، ومن ثم أصبح لنا امتياز الاقتراب من الله دون مانع أو عائق . ولذلك قال الرسول لنا « فلنتقدم بثقه إلى عرش النعمة (نفسه) ، لكى ننال رحمة ونجد نعمة عونا فى حينه » (عبرانيين ٤ : ١٦)

٣ — « وهكذا يأ كل من الخبز ويشرب من الكأس » : إن امتحان المؤمن العاثر لنفسه ، وأ كله بعد ذلك من الخبز وشربه من الخمر ، دليل على أنه لم يكن فى العصر الرسولى شخص مسئول كالكاهن (مثلا) يعترف المؤمنون أمامه بخطاياهم ، حتى يصرّح

من الآية المذكورة اعلاه) ، فليس الغرض منه النجاة من الدينونة الابدية بل العودة الى بهجة الشركة الروحية مع الله فى الوقت الحاضر ، كما يستدل على ذلك من قول داود النبي وهو يعترف بزلته للرب « رد لى بهجة خلاصك ، وبروح منتدبة اعضدنى » (مزمور ٥١ : ١٢)

ولايضاح هذه الحقيقة نقول : إذا خالف مرة ابن بار وصية من وصايا أبيه ، فان أباه ، وان كان لايطرده من بيته أو ينكر بنوته له ، لكن يظهر عدم الرضا عن تصرفه . وبذلك يحرم هذا الابن من العلاقة الطيبة التى كان يتمتع بها معه من قبل ، ويظل على هذه الحال من الحرمان حتى يأتى بتذلل إلى أبيه ، ويعترف أمامه بالخطأ الذى عمله ، متعهداً بعدم العودة إلى مثله

(١) فقد قال النبي « قلت اعترف للرب بذنبي وانت رفعت آثام خطيتى » (مزمور ٣٢ : ٥) — ومن البديهى أن يكون الأمر كذلك للسببين الآتيين (الاول) ان الاعتراف يكون للمساء اليه ، والمساء اليه بعمل الخطية هو الله . ولذلك قال

لهم بالاشتراك فى العشاء الربانى . وإذا كان الأمر كذلك ، فانهم كانوا ، بكل يقين ، يعترفون بها أمام الله دون سواه

فضلا عن ذلك فان امتحان المؤمن العاثر لنفسه ، يجب أن لا ينتهى به إلى البقاء فى عثرته والامتناع تبعا لذلك عن الاشتراك فى العشاء الربانى ، بل يجب أن ينتهى به إلى إزالة كل الموانع التى تمنعه من هذا الاشتراك ، حتى يتقدم للأكل والشرب مع باقى المؤمنين وهو فى حالة المحبة الخالصة للرب والفرح الروحى فيه — والحق ، كما أن الاشتراك دون امتحان شر ، كذلك الامتحان الذى لا يؤدى إلى الاشتراك هو أيضا شر . لأنه إذا كان الأول دليل على عدم المبالاة بوصية الرب عن هذا العشاء ، فالثانى دليل على التراخى والتساهل مع الخطيئة وتفضيل الامور الدنيوية على الاشتراك فى العشاء المذكور .

٤ — « لان كل من يأكل ويشرب بدون استحقاق » : ليس هناك واحد من المؤمنين الحقيقيين مهما بلغ أسمى درجات التقوى ، يستحق فى ذاته أن يكون مقبولا أمام الله . لان « الجميع زاغوا وفسدوا معا . ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد » (رومية ٣ : ١٢) . ومن ثم فان قبول هؤلاء المؤمنين جميعا أمام الله يتوقف

= داود النبى له « اليك وحدك اخطأت والشر قدام عينيك صنعت « (مزمور ٥١ : ٤) . (الثانى) ان الله هو الذى بيده الغفران ، فقد قال « انا هو الماحى ذنوبك لأجل نفسى وخطاياك لا اذكرها » (اشعيا ٤٣ : ٥) — وقد تحدثنا عن موضوع الاعتراف بالتفصيل فى كتاب « الخلاص بين الوحى والمفاهيم البشرية » ، فليرجع اليه القارىء إذا اراد

أولاوأخيراً (كما أعلن الوحى) على كفارة المسيح ، لانها هى التى وفت كل مطالب عدالة الله وقداسته من نحوهم . كما أن الإيمان الذى ينالون به هذا الاستحقاق ، مهما اختلفت مراكزهم ، هو إيمان واحد (٢ بطرس ١ : ١) . ولذلك قال الوحى لهم « بالنعمة أنتم (جميعا) مخلصون ، بالايمان . وذلك ليس منكم هو عطية الله . ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد »(١) .

وما دام الامر كذلك ، فاشتراك أحد المؤمنين الحقيقيين فى العشاء الربانى بدون استحقاق ، لايراد به عدم استحقاقه فى وقت ما للقبول الابدى أمام الله ، بل يراد به عدم وجود هذا المؤمن فى الحالة الروحية التى يكون فيها مستحقا للاشتراك فى هذا العشاء(٢) ، وذلك إما بسبب وجود خطيئة على ضميره لم يعترف بها أمام الله ، أو انصراف ذهنه عن معنى الصليب الذى يمثله هذا العشاء ، أو عدم وجوده فى حالة الايمان بأنه مقبول أمام الله فى المسيح ، أو . أو . وقد أشار الوحى إلى وجوب تنقية قلوبنا ، لا سيما قبل الاشتراك

---

(١) لأن كل الأعمال الصالحة التى يمكن أن يقوموا بها لاتستطيع أن تكفر عن خطية واحدة من خطاياهم ، إذ أن أية خطية هى تعد على حق الله ، وحق الله لاحد له . بينما الأعمال الصالحة مهما كثرت هى محدودة فى قدرها . والامور المحدودة فى قدرها لاتستطيع أن تفى مطالب أمر لاحد لقدره — وقد بحثنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابى « طريق الخلاص » و « الإيمان والأعمال »

(٢) وهذا صحيح أيضا بالنسبة لأى عمل روحى آخر كالصلاة (مثلا) ، فالمؤمن الحقيقى له امتياز التمتع بالله فى كل حين بناء على كفارة المسيح (١ يوحنا ١ : ٣) . ولكن إذا أقدم على الصلاة بذهن مشغول بأمور دنيوية ، لايكون فى هذه الحالة مستحقاً للصلاة ، أو بالحرى لايكون أهلا للقيام بها ، ومن ثم تكون صلاته مكرهة أمام الرب ، ويتعرض تبعا لذلك لتأديبه هنا على الأرض ، على نحو ما .

فى العشاء الربانى ، من أى خطيئة دفينة فى النفس ، فقال « إذاً نقوا منكم الخميرة العتيقة لكى تكونوا عجينا جديدا ، كما انتم فطير(١) . لان فصحنا أيضا المسيح قد ذبح لاجلنا ، إذا لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الخبث والشر ، بل بفطير الاخلاص والحق» (١ كورنثوس ٥ : ٧ — ٨) .

٥ — « يكون مجرما فى جسد الرب ودمه » : إن المراد بالاجرام فى جسد الرب ودمه ، ليس احتساب جريمة صلب المسيح على المؤمن الحقيقى الذى يشترك مرة بدون استحقاق فى العشاء الربانى (لأن هذه الجريمة قاصرة على اليهود والرومان الذين صلبوا المسيح ، وعلى المسيحيين بالاسم الذين بعد ما أنار الله أذهانهم وعرفوا توقف الخلاص الابدى على كفارة المسيح ، يتنكرون له ويرتدون عنه (عبرانيين ١٠ : ٢٩)] ، بل المراد بهذا الاجرام : عدم تقدير هـــذا المؤمن لذكرى موت المسيح بسبب اشتراكه فيها ، دون أن يمتحن نفسه الامتحان الكافى . ومن ثم فالفقرة التى أمامنا ليست عن المؤمن الشاعر بعدم استحقاقه الذاتى للوجود أمام الله ، والمعتمد أولا واخيرا على نعمته الغنية فى أمر الخلاص ، بل إنها عن المؤمن المهمل الذى يستخف بالعشاء الربانى ، فلا

---

(١) «الخمير» فى الكتاب المقدس يرمز به إلى الشر الدفين فى النفس ، كما يتضح من (١ كورنثوس ٥ : ٧ — ٨) ، ولذلك فالعجين الجديد يرمز به الى الحياة الخالية من الشر ، التى يجب أن يحياها المؤمنون الحقيقيون . أما الفطير فيرمز الى مقام الكمال فى الطهارة الذى لهم أمام الله فى المسيح ، على أساس الإيمان القلبى به

يمتحن نفسه بكل تدقيق قبل الاشتراك فيه .

ومما تجدر ملاحظته أن اعتبار هذا المؤمن مجرما فى جسد الرب ودمه ، لا يدل على أن العشاء الربانى يتحول إلى لاهوت المسيح وناسوته ، إذ فضلا عن استحالة حدوث ذلك ، كما ذكرنا فى الفصل السابق ، نقول .

(ا) إن العشاء الربانى لكونه تذكاراً لموت المسيح ، فإن الاستهانة به تعتبر فى الواقع إهانة للمسيح نفسه . ولا غرابة فى ذلك فكلنا يعلم أن احتقار صورة إنسان هو احتقار لشخصه . والكتاب المقدس يعلن هذه الحقيقة بكل وضوح ، فهو ينبئنا انه عندما مدّ أحد اليهود يده إلى تابوت الله ، مات فى الحال (٢ صموئيل ٦ : ٦—٧) ، ذلك لأن هذا التابوت كان رمزاً لعرش الله (اللاويين ١٦ : ٢) ، ورمزاً أيضاً لتجسده تعالى . كما كان تحريم لمسه مثالا لاستحالة إدراك المسيح بالعقل ، مهما حاول تفهم سر التجسد أو كنهه . وقد عرف قدماء الارثوذكس هذه الحقيقة كل المعرفة ، ولذلك قالوا « أما التابوت فكان كشخص الله » (الصلاة الارثوذكسية ص ٦٥٤) ، مع أن التابوت لم يخرج عن كونه صندوقا ليست له فى ذاته قيمة ، سوى قيمته المادية .

(ب) فضلا عن ذلك ، فانه بالرجوع إلى الكتاب المقدس ، نرى أن الرسول قال قبل الآية التى نحن بصددها (والتى دعا فيها الخبز جسداً) ، والاية التى بعدها أيضا : « فانكم كلما أكلتم هذا الخبز ... إذاً أى من أكل هذا الخبز ... وهكذا يأكل من الخبز »

(١ كورنثوس ١١ : ٢٦ — ٢٨) — ومن هذه الآيات يتضح لنا أن العشاء الربانى لا يتحول إلى لاهوت المسيح وناسوته ، لأنه لو كان يتحول إليهما ، لما كان الرسول قد دعا الخبز المستعمل فى هذا العشاء خبزاً (وخبزاً فحسب) ثلاث مرات متتالية ، وذلك لكيلا يتسرب الشك إلى أحد من جهة الاستحالة - إن كانت تحدث استحالة .

٦ — « لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق ، يأكل ويشرب دينونة لنفسه ، غير مميز جسد الرب ودمه . من أجل ذلك فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى و كثيرون يرقدون . لأننا لو كنا قد حكمنا على أنفسنا ، لما حكم علينا . لكن إذ قد حكم علينا ، نؤدب من الرب ، لكى لا ندان مع العالم » : إن الدينونة الواردة فى هذه الفقرة ، ليست هى الدينونة الابدية ، لأن هذه قد حملها المسيح نيابة عنا على الصليب ، وننجو نحن منها عندما نؤمن به إيمانا حقيقيا كما يتضح من (يوحنا ٥ : ٢٤) . والفقرة التى نحن بصددها تثبت أيضا هذه الحقيقة ، لأنها تعلن لنا (أولا) أن المؤمن الذى يشترك فى العشاء الربانى بدون استحقاق ، قد يقضى عليه بالرقاد(١) ، والرقاد يختلف عن الموت. فالاول يعبر به عن انتقال المؤمنين الحقيقيين

---

(١) وهذا القضاء هو ماحكم به بولس الرسول على المؤمن الذى ارتكب فى ساعة من ساعات الطيش خطيئة الزنا . فامر أن يسلم للشيطان ليهلك جسده حتى تخلص روحه فى يوم الرب يسوع المسيح » (١ كورنثوس ٥ : ١ - ٦) — ولزيادة الايضاح اقرأ كتاب « طريق الخلاص »

إلى الحياة الابدية ، بينما الثانى يعبر به عن انتقال غير المؤمنين أو المؤمنين بالاسم،إلى الموت الابدى (ثانيا) إن هذا المؤمن يؤدب من الرب فى الوقت الحاضر لكى لا يدان مع (أهل) العالم،أو بالحرى لكى لا يهلك ، بل تكون له الحياة الابدية — وغرض الله من تأديبنا فى الوقت الحاضر ليس أن ينتقم منا ، بل أن نقدر نعمته علينا و نسلك بكل تدقيق أمامه (عبرانيين ١٢ : ١٠) .

مما تقدم يتضح لنا أن عدم تحول العشاء الربانى إلى ذات جسد المسيح ودمه ،لا يقلل من وجوب الوجود بكل وقار عند الاشتراك فى هذا العشاء. إذ فضلا عن أن الاستخفاف به هو استخفاف بالمسيح نفسه، الامر الذى لا يليق بأى مؤمن حقيقى أن يفعله ، فان الرب كما يوجد بلاهوته فى أى اجتماع ينعقد باسمه ، بناء على وعده القائل « لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى ،فهناك أكون فى وسطهم » (متى ١٨ : ٢٠) ، كذلك يوجد بلاهوته فى اجتماع ممارسة عشائه، لكى يعلن لنا الآلام التى احتملها نيابة عنا فى سبيل التكفير عن نفوسنا — ووجود المسيح بلاهوته لهذه الغاية الكريمة ، يجب أن يقابل منا فى حضرته بكل تعبد وخشوع قلبى .

رابعا ـ اشتراك جميع المؤمنين الحقيقيين فى العشاء الربانى

جاء فى سفر الأعمال أن المؤمنين كانوا (أى كانوا جميعا) يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات (أعمال ٢ : ٤٢) . وقال بولس الرسول « فاننا نحن الكثيرين خبز واحد (أو بالحرى مثل الرغيف الواحد)،جسد واحد ، لأننا جميعا نشترك

فى الخبز الواحد » (١ كورنثوس ١٠ : ١١) — ومن هذا يتضح لنا أن جميع المؤمنين الحقيقيين كانوا يواظبون فى العصر الرسولى على الاشتراك معا فى العشاء الربانى ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ما يأتى :

١ — إن العشاء الربانى هو أعظم إعلان عن نعمة الله التى شملت كل واحد منا نحن المؤمنين ، لأنه يحدثنا عن محبته تعالى لنا وعطفه علينا . كما يحدثنا عن كفارته التى نقلتنا من الظلمة إلى النور ، ومن الهوان إلى المجد ، ومن الموت إلى الحياة (كولوسى ١ : ١٣ ، أفسس ٢ : ٤) — والاشتراك فى هذا العشاء دليل على التجاوب مع الرب فى محبته ، وعلى تقدير كفارته ، والرغبة فى الشركة معه ، الأمر الذى يجب أن يظهره كل واحد منا دون استثناء .

٢ — إن قول المسيح لنا عن عشائه «اصنعوا هذا لذكرى » ، هو آخر وصية قدّمها لنـا عندما كان بيننا على الأرض ، ومن ثم يجب أن يكون له أهمية خاصة فى نظرنا . كما أن قوله لنا [« خذوا كلوا : هذا هو جسدى» و «اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمى»] الذى يفيض حبا وحنانا وجوداً وسخاء ، ليأخذ بألبابنا ويستولى على مشاعرنا ، ويدعونا إلى تلبيته بكل خشوع وورع ، مهما كانت الظروف والأحوال .

٣ — أخيراً نقول : إن الفصح الذى كان (لظروف إقامته) رمزاً من بعض الوجوه للعشاء الربانى ، كان من الواجب على كل إسرائيلى أن يواظب على الاشتراك فيه ، كتذكار لخلاصته الزمنى ، وذلك فى الوقت

الذى حدده الرب (خروج ١٢ :٤٢) ، وإلا عرّض نفسه لقضاء الموت (العدد ٩: ١٣). وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للفصح، فكم يجب علينا نحن المسيحيين أن نواظب على الاشتراك فى العشاء المذكور (أعمال ٢٠ : ٧) ، الذى هو أسمى من تذكار الفصح اليهودى بما لا يقاس . وإن كان الرب لا يقضى على أحدنا بالموت الجسدى (مثلا) إذا أهمل ممارسة عشائه فترة ما ، غير أن هذا الإهمال يدل على انحرافه عن الرب وعدم تقديره التقدير الكافى لمحبته ، الأمر الذى يعطل فرحه بالرب ويضعف حياته الروحية كثيراً — وهذان الأمران . بالنسبة المؤمن الحقيقى ، أمرّ من الموت الجسدى كثيراً .

خامسا — عناصر العبادة

إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس ، يتضح أن عناصر العبادة فى العصر الرسولى كانت تتألف من الشكر والترنيم والاستماع لأقوال الله . غير أننا لانعثر فى هذا الكتاب الإلهى على شىء من عبارات الشكر، التى رفعها مرة واحد من الرسل لله عند ممارسة العشاء الربانى. ذلك لأن الشكر يجب أن يكون بإرشاد الروح القدس وقيادته كما ذكرنا فيما سلف. ومن ثم كان يختلف من رسول إلى آخر ، بل ومن وقت إلى آخر ، حتى بالنسبة إلى الرسول الواحد ، وذلك تبعا للظروف والأحوال . فضلا عن ذلك ، فإن الله لا يريد أن نستعمل عبارات الشكر التى نطق بها آخرون ، لئلا تصبح عبادتنا عبادة تقليدية آلية لا قيمة لها فى نظره تعالى ، إذ أن العبادة الوحيدة التى تسره هى الصادرة من عمل الروح القدس فى نفوسنا ، كما ذكرنا .

لأن الله هو « خالق ثمر الشفتين » (اشعيا ٥٧ : ١٨ و١٩) ، وكما يجعل الثمر جديداً فى كل موسم ، يريد أيضا أن يجعل ثمر الشفتين (الذى هو الشكر) جديداً فى كل مرة من حيث البهجة والقوة ، والتعبير والمعنى أيضا .

وهكذا الحال من جهة الترانيم التى كانوا يرنمونها وأقوال الله التى كانوا يستمعون إليها، عند ممارسة العشاء الربانى . فإننا لا نعثر فى الكتاب المقدس على شىء من هذه أو تلك، ويرجع السبب فى ذلك طبعا إلى أن الله يريد أن نكون منقادين بالروح القدس أيضاً فى الترنيم له والتأمل فى أقواله ، كما يتضح مما يلى :

(١) الشكر والترنيم

١ — إن الصلاة التى تقدم لله فى اجتماع العشاء الربانى يجب أن تكون (كما ذكرنا فيما سلف) شكراً وشكراً فحسب ، لأن فى هذا الاجتماع نضع أمامنا محبة المسيح الفائقة المعرفة التى تجلت فى تقديم نفسه للموت نيابة عنا — هذا العمل الذى لم يعمل مثله فوق الشمس أو تحتها ، لأنه حقق كل مطالب عدالة الله التى لا حد لها من نحونا إلى الأبد ، كما أراح نفوسنا وأعطاها سلاما مع الله إلى الأبد أيضا — وعندما تتفاعل هذه المحبة مع أفكارنا وعواطفنا ، تقودنا فى الحال بعمل الروح القدس فينا ، إلى تقديم التعبد والشكر لله (١) . وقد أشار الوحى مرات كثيرة إلى وجوب الشكر فى

---

(١) إن المصلى، بوجه عام ،هو الذى يطلب شيئاً من الله ،أما الشاكر فهو الذى

اجتماعات العبادة وخارجها أيضا ، فقال « شاكرين الآب الذى أهلنا لشركة ميراث القديسين فى النور ، الذى انقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته » (كولوسى ١ : ١٨) . وأيضا « ليكن عندنا شكر ، به نخدم الله خدمة مرضية بخشوع وتقوى » (عبرانيين ١٢ : ٢٨) . وأيضا « شكراً لله على عطيته التى لا يعبر عنها » (٢ كورنثوس ٩ : ١٥).

٢ — أما من جهة الترنيم ، فانه علامة السرور بالرب والفرح فيه (يعقوب ٥ : ١٣)، وبصفة خاصة بسبب العتق من قصاص الخطية وعبوديتها القاسية (مزمور ١٣٧ : ٤) ، وصيرورتنا ابراراً أمام الله (رومية ٥ : ١) ، وأولاداً له (١ يوحنا ٣ : ١) . فضلا عن ذلك فان الترنيم ، عندما يكون بالروح القدس ، ينعش النفس ويسمو بها عن الأرض وما فيها كثيراً . ولذلك كان الرسول يحث المؤمنين على وجوب الترنيم . فقال لهم « امتلئوا بالروح، مكلمين بعضكم بعضا بمزامير . و(!) تسابيح وأغانى روحية مترنمين ومرتلين فى قلوبكم للرب » ٢٢ (أفسس ٥ : ١٨ و ١٩) .

كما أن كلمة « له » التى تتكرر فى الآية « متى اجتمعتم ، فكل واحد منكم ، له مزمور ، له لسان، له إعلان، له ترجمة» (١ كورنثوس

يقدم حمداً له . ولذلك إن كان الله يسر بالمصلى ، فإنه يسر أكثر بالشاكر (لوقا ١٧ : ١٨ (. كما أن هناك فرقاً أيضاً بين الشاكر وبين العابد ، فالأول يكون متأثراً باحسان الله عليه ، أما الثانى فيكون متأثراً بذات الله وما هو عليه من جلال وكمال لا حد لهما ، ومن ثم فالعابد أفضل من الشاكر لدى الله

١٤ : ٢٦) أربع مرات،مع القول « كل واحد منكم ٠٠٠» ، تدل على أنه لم يكن فى العصر الرسولى شخص كالكاهن (مثلا) يتفرد بالشكر والترنيم أوغيرهما من أمور، مثل الوعظ والتعليم ، كما يتضح بالتفصيل فيما بعد . بل تدل على أن كل مؤمن كانت له الحرية الروحية فى كل من الترنيم والشكر ، لكى يعبر عما فى نفسه من حب وإكرام لله — ولا غرابة فى ذلك فالعلاقة بيننا وبين الله يجب أن تكون علاقة شخصية مباشرة كما ذكرنا ، وإلا فلا معنى للصلاة له على الاطلاق .

أما القول [بأن كلمة « مزمور » فى الآيات السابق ذكرها ، دليل على وجوب استعمال مزامير داود النبى فى العبادة]، فلا مجال له على الاطلاق . لان كلمة « مزمور » ، لا يراد بها هنا مزمور من مزامير داود أو غيره من رجال الله ، بل يراد بها صلاة منظومة أو تسبحة أو ترنيمة، لأن كلمة مزمور لا ترد هنا فى صيغة المعرفة بل النكرة.

وبهذه المناسبة نقول إن مزامير داود النبى وغيره من رجال الله المدوّنة فى العهد القديم ،وإن كانت مصدراً هاما للتعليم والارشاد ، ومن الواجب علينا أن نقرأها ونفيد منها . كما أنه من الجائز أن نستعمل العبارات التى تتناسب منها مع حالتنا ، فى الصلاة التى نرفعها فى الوقت الحاضر لإلهنا ، غير أنه يجب ألا نتخذها بحذافيرها كل حين صلاة لنا . وقد عرف قدامى الارثوذكس هذه الحقيقة كل المعرفة ، فقالوا « الصلاة التى يرفعها المؤمن بالروح إلى الله ، هى أفضل بكثير من المزامير». وقالوا أيضاً « إننا لا نجد لأنفسنا عدداً خاصاً (بنا) من المزامير فى كل صلاة ، (فاذا اعتمدنا على المزامير) ،

نصبح تحت عبودية الاعداد ، ونرتبط بها كل أيام حياتنا . ولكن ينبغى لنا فى كل صلاة أن نثبت حسب الإمكان وعلى قدر الوقت ومعونة النعمة على كل صلاة » (حياة الصلاة الأرثوذكسية ص ٤٩ ر ٤٧١ ر ٥٩٦) — ومن هذا يتضح لنا أنه لم تكن لديهم صلاة يحفظونها عن ظهر قلب ، كما هو متبع عند بعض المسيحيين فى الوقت الحاضر .

ويرجع السبب فى تفضيل القدامى الصلاة بالروح على المزامير ، أن من يصلى بالمزامير كما هى ، لا يصلى فى الواقع بدافع من شعوره الشخصى أو من إرشاد روح الله له ، بل يكرر صلاة أشخاص عاشوا فى ظروف خاصة لا تتفق فى معظم الأحيان مع ظروفه . لأن العبارات [« قربوا للرب أبناء الكباش » و « صوت الرب يزلزل برية قادش » و« أذكر (يارب) رهب وبابل اللتين يعرفاننى» و « أذكر يارب داود وكل ذله »] ، التى يرددها إلى الآن بعض المسيحيين مع ما شاكلها من عبارات ، فى الصلوات اليومية الخاصة بالساعات الثالثة والسادسة والتاسعة ، نقلا عن المزامير المذكورة ، لا يليق أن تكون صلاة شخص مسيحى فى أى عصر العصور . ولذلك إذا رجعنا إلى العصر الرسولى والقرنين الثانى والثالث ، نرى أنه كانت للمسيحيين وقتئذ مزامير وتسابيح روحية ينشدونها بتأثير الروح القدس فى نفوسهم ، كما يتضح من (أفسس ٥ : ١٩، كولوسى ٣ : ١٦)— أما استعمال مزامير داود فى العبادة عند بعض المسيحيين ، فقد بدأ فى القرن الرابع ، وذلك عندما ضعفت حياتهم

الروحية ، ولم يجدوا فى نفوسهم الاستعداد الكافى للانقياد فى الصلاة بالروح القدس .

(ب) خدمة الكلمة (او بالحرى الوعظ والتعليم)

١ — إن خدمة الوعظ والتعليم ، لم تكن فى العصر الرسولى مناطة كذلك بشخص معين ، بل كانت مباحة لكل الذين نالوا مواهب روحية من الله[1]. فقد قال الرسول للمؤمنين «متى اجتمعتم، فكل واحد منكم له تعليم . . . فليكن كل شيء للبنيان » (١ كورنثوس ١٤ : ٢٦) . كما قال لهم « لكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا . أنبوة فبالنسبة إلى الإيمان ، أم الواعظ ففى الوعظ . . . » (روميه ١٢ : ٦ — ٨) . وقال عن المسيح إنه « أعطى البعض أن يكونوا رسلاً ، والبعض أنبياء ، والبعض مبشرين ، والبعض رعاة ومعلمين ، لأجل تكميل القديسين » (أفسس ٤ : ١١) — ومن ثم كان المؤمنون يعظون بعضهم بعضا ويعزون بعضهم بعضا ، ويبنون أحدهم الآخر (عبرانيين ١٠ : ٢٥، ١ تسالونيكى ٥ : ١١) . وكان أصحاب المواهب ينظرون إلى المواهب التى لهم ليس كوسيلة للفخر أو التباهى ، بل كوسيلة لخدمة المؤمنين وفائدتهم (١ بطرس ٤ : ١٠ — ١١) . كما كان يتكلم

(١) مما تجدر الاشارة إليه أن هناك فرقاً شاسعاً بين المواهب العقلية والمواهب الروحية . فالأولى طبيعية تولد مع بعض الأشخاص ، وعمادها اللباقة والفصاحة وسرعة الخاطر . أما الثانية فهى هبة من الله للمؤمنين الحقيقيين ، وعمادها التقوى والغيرة المقدسة على مجد الله والتدقيق فى السلوك أمامه .

منهم فى اجتماع العبادة إثنان أو ثلاثة ، ويحكم السامعون على أقوالهم(١) (١ كورنثوس ١٤ : ٢٩) — ومن ثم كان من الواجب على المتكلمين ، أن تكون لهم السيطرة على أفكارهم حتى لا يتكلموا بغير أو بأكثر مما يعطيهم الروح القــدس أن ينطقوا به (١ كورنثوس ١٤ : ٢٣) . وبذلك لم تكن اجتماعات العبادة مجالا يظهرون فيه ما لديهم من مواهب ، بل مجالا للروح القدس لــكى يتكلم فيهم لأجل فائدتهم وفائدة إخوتهم المؤمنين معاً .

٢ — مما تقدم يتضح لنا أن القائمين بخدمتى الوعظ والتعليم كانوا أيضا يرتجلون الـكلام ارتجالا ليس انقياداً وراء عواطف فى النفس أو أفكار فى العقل ، بل وراء إرشاد الروح القدس دون سواه . والروح القدس لا يستخدم طبعا مؤمنا ما ، إلا إذا كان هذا المؤمن خاضعا له خضوعا تاما فى سلوكه وتصرفاته . كما أنه (أى الروح القدس) يحصر تعليمه ووعظه فى نطاق كلمة الله ، لأنه هو الذى سبق وأملاها للرسل والانبياء . وفى فرصة ممارسة العشاء الربانى ، لا يقود أصحاب المواهب (إن لم يكن هناك ظرف طارىء يتطلب وعظا أو تعليما خاصا) ، إلا للتحدث عن محبة الله

---

(١) من هذه الآية يتضح لنا أن السامعين كانوا يصغون بكل انتباه إلى التعاليم التى تقال لهم ، كما كان لديهم وعى كتابى يحكمون بمقتضاه على هذه التعاليم ، إن كانت موافقة لأقوال الله أو مخالفة لها .. فضلا عن ذلك كان لهم حق المجاهرة بآرائهم أمام المتكلمين ، دون عائق أو مانع — الأمر الذى يدل على أن الجميع ، متكلمين وسامعين ، كانوا يعتبرون انفسهم واحداً أمام الله ، كما كانوا يحيون معاً حياة الخضوع لارشاد الروح القدس وقيادته

وفدائه الكريم ، لأن هذا الموضوع هو الذي يتناسب مع الفرصة المذكورة . كما أن التحدث عنه ، فضلا عن أن معينه لا ينضب على الاطلاق ، فإن المؤمنين إن سمعوا عنه آلاف المرات ، لا يمكن أن يملوا من السماع عنه آلافاً أخرى ، إذ في كل مرة يسمعون عنه يفرحون ويرفعون الحمد والشكر لله .

أما القول [إن فتح المجال أمام المؤمنين عامة للصلاة والترنيم والوعظ والتعليم دون رئيس يقودهم وينظم عبادتهم ، لا بد إنه يؤدى إلى الفوضى بينهم] ، فلا مجال له . لأن المسيح يحضر بلاهوته وسط المؤمنين الحقيقيين الذين يجتمعون باسمه (متى ١٨ : ٢٠) ، وحضوره بلاهوته وسطهم، ليس مجرد عقيدة دينية بل إنه حقيقة واقعية . ومن ثم فإن المؤمنين الحقيقيين يشعرون جميعا بالهيبة التي تلازم حضور الرب في اجتماعهم باسمه(١) ، ولذلك لا يجرؤ واحد منهم في هذا الاجتماع على الاندفاع والتسرع أو التنازع والتعارض — نعم إن الحرية مكفولة لهم جميعا للقيام بالصلاة والترنيم والوعظ والتعليم ، لانه حيث روح الرب فهناك حرية (٢ كورنثوس ٣ : ١٧) . لكن هذه الحرية ليست لهم ، بل للروح القدس العامل فيهم . ومن ثم لا يكون هناك مجال للفوضى

(١) « الاجتماع باسم الرب » لا يراد به مجرد الاجتماع للصلاة أو الترنيم ، أو الوعظ والتعليم . بل يراد به قبل كل شيء ، تقابل نفوس المؤمنين الحقيقيين مع الرب على أساس الايمان الحقيقي بحضوره ، ووجودها تحت رئاسته لأجل غرض واحد ، هو تمجيده واكرامه . لأن هذا العمل هو الذي يجعلها تدرك حقيقة وجود الرب معها ، وتفيد منه الفائدة المرجوة

بينهم على الاطلاق .

٣ — وبجانب الوعظ والتعليم اللذين كان يقوم بهما أصحاب المواهب ، كان المؤمنون فى العصر الرسولى يقرءون فى اجتماع العشاء الربانى شيئا من أقوال الله الخاصة بالفداء الكريم ، الذى عمله المسيح (وذلك فى أسفار العهد القديم ، وفى الاجزاء التى كانت قد وصلتهم من العهد الجديد)، لان هذه الاقوال هى التى تتلاءم مع الغرض من الاجتماع المذكور — وأقوال الله ، لها أعظم الأثر فى المؤمنين الحقيقيين ،إذ أنها تنقيهم وتغذيهم وتزيدهم اقتراباً من الله ورغبة فى التعبد له ، والسلوك بكل قداسة أمامه . وقد أشار موسهيم إلى ماتقدم ذكره فقال « وكانت تقرأ الكتب المقدسة فى اجتماعاتهم الجمهورية. ثم يتلوها نصائح للشعب لا فصيحة ولا طويله ، لكنها كانت مملوءة من الحرارة والمحبة . وإن كان هناك أشخاص دلوا على أنهم حركوا بالهام الهى ، كان يسمح لهم أن يذكروا بالتتابع ما أمر الرب به » (تاريخه ص ٤٢/٤٣)

سادسا ـ توزيع العشاء الربانى على المشتركين فيه

(ا) قبل تعيين القسوس والشمامسة

نظراً لأن الرسل كانوا لا يستقرون فى مكان خاص ، بل كانوا ينتقلون من مكان إلى مكان للمناداة بالانجيل (أعمال الرسل ١٣ / ١٤ / ١٥ / ١٦) . وفى الوقت نفسه لم يكونوا قد عينوا فى أول الأمر قسوسا ، لانه لم يكن قد نضج من بين المؤمنين بعد ،

من يستطيع القيام بخدمة القسوسية[1] (وهى الرعاية والتدبير)، لذلك كان المؤمنون عامة يمارسون العشاء الربانى بأنفسهم معا — وهذا التصرف يتفق مع أقوال الوحى كل الاتفاق ، كما يتضح مما يلى :

١ — ليست هناك آية واحدة فى الكتاب المقدس تدل على أن القيام بالعشاء الربانى وتوزيعه على المؤمنين مناط بالقسوس أو أصحاب المواهب ، ومن ثم يكون من عمل المؤمنين الحقيقيين عامة . ومما يثبت ذلك أن الرسول قال لكنيسة كورنثوس [أى لجميع المؤمنين الحقيقيين بها (١ كورنثوس ١ : ٥) (٢)] « لأنى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا . أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر ، وقال : خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم»

---

(١) لأنه كان يشترط فى القسوس ، بجانب تقدمهم فى السن وسلوك أولادهم فى خوف الله (تيطس ١ : ٦) ، أن تكون لكل منهم شهادة حسنة من الذين هم من خارج ، وأن لا يكون أحدهم حديث الايمان لئلا يتصلف فيسقط فى دينونة ابليس (١ تيموثاوس ٣ : ٤ - ٧)

(٢) كلمة « كنيسة » يراد بها فى الأصل العبرى جماعة من الناس لها هدف واحد ، ويراد بها فى المسيحية ليس المكان الذى يجتمع فيه المسيحيون للصلاة ، أو رجال الدين بينهم ، بل يراد بها المؤمنون الحقيقيون فحسب ، فقد قال الوحى « تخضع الكنيسة المسيح .. كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها ، لكى يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة ، لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة ... » (أفسس ٥ : ٢٤ - ٢٧)

(١ كورنثوس ١١ : ٢٢)

٢ — إن الوحي يعلن لنا أن المؤمنين كانوا يجتمعون معا للقيام بالعشاء الرباني، دون أن يكون هناك قائد بشري يقودهم أو يتفرد بالشكر الخاص بهذا العشاء، وتوزيعه عليهم. فقال « وفي أول الأسبوع إذ كان التلاميذ، أو بالحرى المؤمنون (قابل أعمال ٩ : ١ و ٣٦ مع ١٩ : ١) مجتمعين (أي مجتمعين كعادتهم) ليكسروا خبزاً » (أعمال ٢٠ : ٧) . كما قال عن الذين آمنوا في أول الأمر أنهم « كانوا يواظبون على (السلوك وفق) تعليم الرسل(١) والشركة وكسر الخبز والصلوات (أعمال ٢ : ١٢) ، أي أنهم كانوا يواظبون على ممارسة العشاء الرباني معا من تلقاء أنفسهم، وذلك بالطريقة التي كانوا يواظبون بها على الصلاة والشركة والسلوك وفق تعليم الرسل .

٣ — إن الرسول عندما تحدث عن كأس العشاء الرباني، لم يقل . الكأس التي أباركها أو يباركها شخص معين، بل قال « الكأس التي نباركها » . وعندما تحدث عن خبز هذا العشاء، لم يقل : الخبز الذي اكسره أو يكسره شخص معين ، بل قال « الخبز الذي نكسره » (١ كورنثوس ١٠ : ١٦) . وبما أن الرسول لم يكن يتكلم عن نفسه بصيغة الجمع [إذ أن هذه الصيغة تستعمل للتعظيم ، وهو لم يكن يعظم ذاته على الإطلاق . (١ كورنثوس

---

(١) المراد بالمواظبة على تعليم الرسل ، ليس المواظبة على التعلم منهم ، بل على السلوك بمقتضى تعليمهم — كما يتضح بكل جلاء من الأصل اليوناني والتراجم الأجنبية

١٥ : ٩)] ، وفى الوقت نفسه ليس من المعقول أنه كان يقصد بهذه الصيغة شخصه والرسل معه [لأنه كان يتحدث إلى كنيسة قد انفرد هو بالكرازة بالإنجيل فيها (١ كورنثوس ٢ : ٤،٤ ١٥:٤)] ، لذلك لاشك أنه لم يقصد بالصيغة المذكورة إلا شخصه والمؤمنين الذين كان يكتب إليهم ، بوصفه وإياهم جسداً واحداً أمام الله فى المسيح ، لا رئيس بينهم ولا مرءوس ، إذ أن رئيسهم ورأسهم جميعاً من هذه الناحية ، هو المسيح دون سواه (أفسس ٤ : ١٥ ، كولوسى ١ : ١٨، ٢ : ١٩) .

٤ — إذا رجعنا إلى الفصل الذى يحدثنا عن إساءة الكورنثوسيين التصرف فى ممارسة العشاء الربانى ، لا نرى الرسول يوجه اللوم إلى شخص أو أشخاص منهم ، بل يوجه اللوم إليهم جميعاً (١ كورنثوس ١١ : ١٧ — ٣٤) . وطبعاً لم يكن ليفعل ذلك ، لولا أنه لم يكن بينهم رئيس من البشر ينفرد بالشكر الخاص بهذا العشاء وتوزيعه عليهم ، وكانوا هم الذين يقوموت بهذين العملين بأنفسهم. فإذا أضفنا إلى ذلك أن المؤمنين على اختلاف مستوياتهم كانوا قد أخطؤا وأعوزهم مجد الله (رومية ٣ : ٢٣) ، وليس لأحدهم مجال للقبول أمامه إلا على أساس كفارة المسيح التى يمثلها العشاء الربانى، أدركنا أنه يجب أن لا يكون لواحد منهم الأفضلية للانفراد بالشكر لله أو توزيع هذا العشاء عليهم .

٥ — أخيرا نقول : إذا وضعنا أمامنا أن الرب يريد أن يكون كل واحد من المؤمنين فى حالة اليقظة الروحية ، والشعور بالمسئولية

من جهة الوجود فى حالة القداسة أمامه له المجد ، والاشتراك فى العشاء الربانى تحت رئاسته وسلطانه ، اتضح لنا أن اسناد القيام بهذا العشاء إلى جميع المؤمنين الحقيقيين تحت سيادة الروح القدس وقيادته ، هو السبيل الذى يتفق مع مشيئة الله كل الاتفاق . ولذلك فانه كما يعمل فى قلوب بعضهم للشكر أو الترنيم ، ويعمل فى قلوب البعض الآخر للوعظ أو التعليم، يعمل فى قلوب البعض أيضا التوزيع العشاء الربانى .

(ب) بعد تعيين القسوس والشمامسة

أولا — إقامة القسوس والشمامسة ، والأعمال المسندة إلى كل من الفريقين : عندما كثر المسيحيون وتكونت منهم كنائس تضم يهوداً وغير يهود ، كما كانت الحال فى كنيسة أفسس مثلا (١تيموثاوس ١ : ٣) ، وظهر بينهم أشخاص تتوافر فيهم شروط القسوسية السابق ذكرها ، أقام الرسل من بينهم قسوسا كما أقاموا أيضاً شمامسة. وكلمة « قسيس » التى ينطقها كثيرون دون أن يعرفوا معناها ، لا يراد بها إلا الشيخ ، لأنها معربة عن الكلمة السريانية « قشيشو » ومعناها « شخص متقدم فى السن. وهكذ الحال من جهة «شماس»، فان معناها «الخادم» ، لانها معربة عن الكلمة السريانية «مشمشونو» ومعناها «خادم» بالمعنى العام المعروف الدنيا (١). ومن ثم فهاتان الكلمتان

---

(١) ويقول بعض علماء اللغات أن كلمة « الشمس » مشتقة من كلمة « شماس » ؛ وذلك بوصف الشمس خادمة للعالم

لاعلاقة لها بما ينسب إليهما من خصائص كهنوتية أورياسة دينية. وفيما يلى ، ما سجله الكتاب المقدس عن الشروط الواجب توافرها فى كل من الشمامسة والقسوس، وعن الأعمال المسندة إلى كل منهما :

(ا) يجب أن يكون الشمامسة من الرجال الذين لهم سر الإيمان بضمير صالح ، والذين لهم أيضاً زوجات وأولاد فى حالة الطاعة والوقار (٢ تيموثاوس ٣: ٨ — ١٣) . وكانت المهمة التى أقيموا لتأديتها ، هى العناية بالأرامل والأيتام (أعمال ٦ : ١ - ٨) . غير أن من كانت لديه منهم مواهب روحية من الله ، مثل الوعظ أو التعليم أو التبشير ، كان يمارسها (بالإضافة إلى مهمة العناية بالأرامل والأيتام السابق ذكرها) ، وكان الرب يبارك تأثيرها لفائدة كثيرين . لكن لما تطوّرت العبادة المسيحية من صلاة ارتجالية بقيادة الروح القدس ، إلى قداسات لها طقوس وشعائر خاصة (كما سيتضح فيما يلى) ، تحوّل عمل الشمامسة من الخدمة المعينة لهم حسب كلمة الله ، إلى معاونة القسوس فى تأدية القداسات ، بل وأصبحوا ينتخبون من الصبيان والشبان الذين لا تتوافر فيهم الشروط الواردة فى الكتاب المقدس .

(ب) أما القسوس ، ففضلا عن وجوب تقدمهم فى السن والإيمان ، وسلوك اولادهم فى خوف الله كما ذكرنا فى هامش سابق ، لم يكن الغرض من تعيينهم قيادة المؤمنين فى العبادة (لان هذه كانت تسير تحت رياسة الروح القدس وقيادته) ، أو التفرد بالوعظ

والتعليم (لأن هذين كان يقوم بهما المؤمنون الذين أعطاهم الرب مواهب خاصة) ، أو توزيع العشاء الربانى على المشتركين فيه (لأنه فضلا عن أنه ليست هناك آية واحدة فى الكتاب المقدس تدل على ذلك ، فإنهم مثل باقى المؤمنين كانوا أمواتاً بالذنوب والخطايا ، وقد خلصوا مثلهم بنعمة الله المجانية . ومن ثم يكون موقفهم إزاء العشاء الربانى ، الذى يمثل الخلاص بهذه النعمة ، هو موقف باقى المؤمنين سواء بسواء) . بل كان الغرض من إقامة القسوس ، هو رعاية المؤمنين (أو بالحرى تعضيدهم كأفراد وجماعات للسير فى حياة الإيمان والتقوى) ، وفض المنازعات التى كانت تقوم بينهم بسبب اختلاف بعضهم عن البعض الآخر من جهة الجنسية وغيرها من الامور ، إذ أن كل ما سجله الوحى عن عمل القسوس ، هو أن يرعوا المؤمنين (١ بطرس ٥ : ٢) ويدبرونهم، وأن يكونوا قادرين على الوعظ بالتعليم الصحيح وتوبيخ المناقضين (تيطس ١ : ٩) .

ومجال القيام بهذه الأعمال فى البيوت وبين العائلات[1] ، أوسع من المجال داخل اجتماعات العبادة . أما إذا كان القسوس من أصحاب المواهب الروحية، فطبعاً كان لهم أن يستخدموا مواهبهم داخل هذه الاجتماعات جنباً إلى جنب مع غيرهم من أصحاب المواهب الروحية ، وذلك بالإضافة إلى الخدمة التى اقيموا أصلا لتأديتها .

(١) ومن اتصال القسوس بالعائلات لفض المنازعات التى قد تقوم بينها ، نرى حكمة الله فى وجوب اختيارهم من الشيوخ، والشيوخ الذين يتصفون بالتقوى والسيرة الطيبة

(ح) فضلا عن ذلك ، فإنه مع تقدم القسوس فى السن والإيمان وأهمية الخدمة التى كانوا يقومون بها ، كانوا يعيشون مع باقى المؤمنين فى أول الأمر ، لاحياة الرياسه والسيادة ، بل حياة التواضع والوداعة . وذلك عملاً بقول المسيح لتلاميذه « وأما أنتم فلا تدعوا (من أحد) سيدى » (متى ٢٣ : ٨ — ١١) ، وعملا أيضاً بقول الرسول إن الاسقف(١) يجب أن لا يكون معجباً بنفسه (تيطس ١ : ٦) ، وإن القسوس يجب أن يقوموا بعملهم ليس لربح قبيح بل بنشاط ، وليس كمن يسود على الأنصبة(٢) ، بل صائرين أمثلة للرعية (١ بطرس ٥ : ١ — ٣) ، وقوله عن نفسه « إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسى للجميع » (١ كورنثوس ٩ : ١٩)، وقوله للمؤمنين إنه مع باقى الرسل « عبيد لهم » (٢ كورنثوس ٤ : ٢١) . ومن ثم فإن العبادة مع وجود القسوس والشمامسة ، كانت تسير فى اجتماع العشاء الربانى وغيره من اجتماعات العبادة (كما كانت تسير فى حالة عدم وجودهم) ، تبعاً لقيادة الروح القدس فحسب .

ثانياً — أهمية الانقياد بالروح القدس فى العبادة (أ) إن إرشاد الروح القدس لنا فى العبادة ، هو الضمان الوحيد لصياغتها

---

(١) كلمة « اسقف » معربة من الكلمة اليونانية « ايسكوبوس » ، ومعناها « الناظر » أو « المشرف »

(٢) كلمة « انصبة » هنا يراد بها المؤمنون انفسهم ، وذلك بوصفهم « ميراث الله ونصيبه » الذى اختاره لنفسه من العالم (٢ صموئيل ٢١ : ٣) ، ولذلك يطلق عليهم رعية الله (١ بطرس ٥ : ٢)، وليس رعية القسوس أو الاساقفة

حسب مشيئةالله، ولقبولها أمامه أيضاً. لأن الروح القدس هو وحده الذى يعرف أعماق الله أو الله على حقيقته (١ كورنثوس ٥:١٠)، ويستطيع تبعاً لذلك أن يكشف لنا عن مشيئته ومقاصده (يوحنا ١٤ : ٢٦)، ومن ثم فهو وحده الذى يستطيع أن يؤهلنا للوجود فى حضرة الله لتقديم العبادة اللائقة به. ولذلك قال المسيح من قبل «الله روح. والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا» (يوحنا ٤ : ١٣). كما قال الرسول «الروح أيضاً يعين ضعفاتنا، لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى. لكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها، و(الله) الذى يفحص القلوب يعرف اهتمام الروح لأنه حسب مشيئة الله يشفع فى القديسين» (رومية ٨ : ٢٦، ٢٧).

وإذا كان ذلك كذلك، يجب أن نكف عن اعتقادنا بأن معلوماتنا الدينية وقدرتنا على التعبير عن آرائنا، تؤهلاننا للقيام بالصلاة التى تتوافق مع مشيئة الله. ومن ناحية أخرى، يجب أن نسلم نفوسنا لروح الله تسليما كاملا، لأنه هو وحده الذى يستطيع أن يرشدنا للقيام بهذه الصلاة، وإلا فان صلاتنا تكون صلاة جسدية أو شكلية لا قيمة لها فى نظره تعالى — وطبعاً لا يستطيع أن يختبر إرشاد الروح القدس فى العبادة إلا المؤمنون السالكون بالقداسة، والخاضعون لإرشاده فى حياتهم اليومية كما ذكرنا فيما سلف، لأن العبادة فى المسيحية ليست شيئاً منفصلا عن السلوك، بل إنها مقترنة به كل الاقتران.

(ب) وقد عرف قدامى الأرثوذكس «وجوب الصلاة بالروح» حق المعرفة. فقال أحدهم «إن الصلاة الروحانية تكون من

فعل الروح القدس وتدبيره ، وليس من فعل الإرادة وسلطانها . وإن الصلاة بالروح أسمى من الصلاة بالقلب والعقل ، لأن فيها يصبح وجود الله حقيقة ملموسة فى النفس » . وقال غيره « فى خدمتى وصلاتى لا أعرف جهداً أو تعباً لأنى لا اتحرك بهواى ، بل أنصت فقط واستمع إلى الروح القدس فىّ ، فاشتعل حرارة وحباً — وهذا هو ما قيل عنه إن الروح القدس يصلى فينا بأنات عجيبة لا ينطق بها » . وقال آخر « إذا حل الروح القدس فى إنسان ، لا يستطيع أن يتوقف عن الصلاة ، لأن الروح سيصلى فيه على الدوام ، سواء أكان آكلا أم شارباً ، أم مستريحاً أم منشغلا » (حياة الصلاة الأرثوذكسية ص ٧٠ و٨٧ و٤٣١ و٤٤٢).

كما عرفوا أن موضوعات الصلاة يجب أن تكون نابعة من الكتاب المقدس وحده (أى ليس من آراء البشر ، مهما كانت تقواهم) ، فقالوا إن « النبع الذى يلقن منه الروح القدس دروس الصلاة ، هو الكتاب المقدس . لذلك فبدون القراءة فى الكتب الإلهية ، لا يمكن للذهن أن يدنو من الله » (حيـــاة الصلاة الأرثوذكسية ص ٤٠ و ٤٨) ، الأمر الذى يدل على أنه لم تكن لديهم صلوات يتناقلها الخلف عن السلف ، وأنهم كانوا أشخاصاً مولودين من الله ولادة روحية ، حصلوا بها على الروح القدس فى نفوسهم (١ بطرس ١ : ٣ و٢٥ ، غلاطية ٤ : ٦) . كما كانت لهم دراية عظيمة بأقوال الوحى الإلهى . فقد قال المسيح « الله روح . والذين يسجدون له ، فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا » (يوحنا ٤ : ٢٤) ، والروح هو الروح القدس ، والحق هو كلمة الله (يوحنا ١٧ : ١٧) .

٣

الاعتراضات على قيام المؤمنين معاً بالعشاء الرباني ، والرد عليها

١ – [إن المسيح أقام تلاميذه خلفاء له . فقد قال لهم « الذى يسمع منكم ، يسمع منى . والذى يرذلكم يرذلنى » ، ولذلك فان لهم ولمن اختاروهم من أشخاص يخلفونهم ، حق القيام بأعمالهم . ومن أهم هذه الأعمال القيام بالعشاء الربانى] .

الرد : فضلا عن أن القيام بالعشاء الربانى ، هو من عمل جميع المؤمنين الحقيقيين كما ذكرنا فى الفصل السابق ، وفضلا عن أنه ليست هناك آية واحدة فى الكتاب المقدس تنص على أن المسيح عين تلاميذه خلفاء له ، أو أوصاهم بتعيين خلفاء لهم يخلفونهم بعد موتهم ، الأمر الذى لا يدع مجالا لهذا الاعتراض نقول :

(١) إن المسيح لم يظل فى قبره بعد موته مثل الناس ، حتى كان يستلزم الأمر وجود خليفة أو خلفاء له ، بل إنه حى إلى أبد الآبدين (رؤيا ١ : ١٨) ، ولا يمكن أن يسود عليه الموت فيما بعد (رومية ٦ : ٩) . لذلك فانه وإن كان لا يوجد بالجسد

معنا فى الوقت الحاضر ، غير أنه يوجد معنا بلاهوته بناء على قوله « لأنه حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمى ، فهناك أكون فى وسطهم» (متى ١٨ : ٢٠) . وقوله « وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) . ومن ثم فالقول [بأن المسيح أقام الرسل خلفاء له] ، فضلاعن أنه لا أساس له فى الكتاب المقدس ، هو تنكر لحقيقة حضور المسيح بلاهوته فى كل مكان يجتمع فيه المؤمنون الحقيقيون باسمه ، وتنكر أيضاً لحقيقة اتصال نفوسهم به عن طريق الروح القدس الساكن فيهم (١ كورنثوس ٦ : ١٩).

(ب) و « وجود المسيح بلاهوته مع المؤمنين الحقيقيين ، وعمله الروحى فى نفوسهم بقوة الروح القدس» ، ليس عقيدة دينية فحسب، بل إنه أيضاً حقيقة اختبارية ، ولذلك فإن وجوده هذا لا يقل فى شىء عما لو كان موجوداً معهم بناسوته ، إن لم يكن أفضل . فقد قال لتلاميذه « لكنى أقول لكم إنه خير لكم أن انطلق، لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم المعزى (الذى هو الروح القدس). ولكن ان ذهبت، أرسله اليكم » (يوحنا ١٦:٧ — ٩). لأن الروح القدس بالإضافة إلى أنه يعلمنا كل شىء ويذكرنا بكل ما قاله المسيح لنا (يوحنا ١٤:٢٦) ، فإنه يدربنا من يوم إلى آخر على الاتصال الروحى بالمسيح ، ومن ثم يهيئنا للاتصال به إلى الأبد فى العالم الآخر — هذا العالم الذى لا يوجد فيه مجال لأى علاقة حسب الجسد — وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال « إذاً نحن من الآن لا نعرف أحداً

حسب الجسد . وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد ، لكن لا نعرفه بعد » ، من هذه الناحية (٢ كورنثوس ٥ : ١٦) .

(حـ) أما الرسل الذين أقامهم المسيح وزوّدهم بالمواهب الروحية، فلم يكونوا سوى وسائط لتلقي الوحي وتسجيله وإقامه الكنيسة على أساسه ، ومن ثم فوجوب قبولهم وعدم رفضهم ، يرجع إلى أهمية خدمتهم هذه . وبما أن هذه الخدمة قد تمت على أكمل وجه ، لم تعد هناك حاجة إلى وجودهم . غير أنه ، وإن لم يكن لدينا الآن رسل أو خلفاء لهم ، لكن لنا (كما ذكرنا فيما سلف) المسيح بلاهوته ، والروح القدس الذى يعلمنا ويرشدنا ، كما لنا الكتاب المقدس الذى هو وحى الله الصادق لنا . . وبالإضافة إلى كل ذلك ، لنا فى كل زمان ومكان أشخاص لهم من الله مواهب روحية ، مثل المعلمين والمبشرين والرعاة والوعاظ والمدبرين، الذين يقومون بخدمة المؤمنين وغير المؤمنين على السواء .

٢ – [إن تلاميذ المسيح جميعاً انتقلوا إلى السماء فى أواخر القرن الأول.ومن ثم يكون المسيح قصد بقوله السابق لهم « وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » ، أنه يكون مع خلفائهم ، والا يكون وعده المذكور قد تعطل تنفيذه ، وهذا محال] .

الرد : فضلا عن أن الحقائق الدينية تبنى على آيات واضحة وليس على مجرد استنتاج أوتأويل بشرى، الأمر الذى لا يدع مجالا لهذا الاعتراض نقول :

إن وعد المسيح بالوجود بلاهوته (بعد صعوده إلى السماء) لم يكن موجهاً إلى التلاميذ وحدهم ، بل إلى جميع المؤمنين الحقيقيين على السواء . فقد رأينا فيما سلف أنه قال « حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى ، فهناك أكون فى وسطهم » . أو بالحرى أى اثنين أو ثلاثة من هؤلاء المؤمنين . وإذا كان ذلك كذلك ، فان الوعد المذكور فى الاعتراض موجه إلى التلاميذ ليس بصفتهم الشخصية ، بل بصفتهم باكورة المؤمنين الحقيقيين .

٣ — [إن بولس الرسول أقام تيموثاوس وتيطس خليفتين له ، وعلى هذا المثال أقام باقى الرسل خلفاء يقومون بأعمالهم بعد انتقالهم إلى السماء . وفى مقدمةهذه الأعمال ، القيام بالعشاءالربانىّ] .

الرد:(ا) بالرجوع إلى الكتاب المقدس نرىأن بولس الرسول، نظراً لأسفاره الكثيرة فى نشر الإنجيل ، لم يكن يظل فى بلدة مامدة طويلة ، حتىيظهر من بينالمؤمنين فيهاأشخاصراسخونفى الإيمان ، يمكن انتخابهم للأسقفية أو الرعاية الدينية . ولذلك طلب من تيموثاوس أن يمكث (وكلمة «يمكث» لاتدل على أن الرسول عينه خليفة) فى أفسس (١ تيموثاوس ١ : ٣) . وترك تيطس (وكلمة «ترك» لاتدل أيضاً على أن الرسول عينه خليفة)فى كريت (تيطس ١ : ٥) — وذلك لكى يعظا المؤمنين ويقاوما كل تعليم غريب عن الوحى الالهى ، ولكى يقيما أيضاً أساقفة وشمامسة . ومما يدل أيضاً على أنه لم يعينهما خليفتين له فى هذين المكانين ، أنه

لم يطلب منهما أن يستقرا فيهما (كما هو متبع عند القائلين بوجود خلفاء للرسل فى الوقت الحاضر) ، بل طلب منهما أن يبادرا أو بالحرى أن يعجلا باللحاق به ، لاستئناف خدمة الإنجيل معه فى البلاد التى كان يريد الذهاب إليها (٢تيموثاوس ٤ : ٢١ ، تيطس ٣ : ١٢) .

(ب) ولو فرضنا جدلا أن المسيح اوصى تلاميذه سرا أن يقيموا خلفاء لهم (لأنه ليست هناك آية واحدة تدل على مثل هذه الوصية)، لكان يوجد فى العالم منذ أواخر القرن الأول ١٣ خليفة (لأن الرسل بعد صعود المسيح كانوا، باضافة متياس و بولس ١٣ رسولا)، أو بالحرى لكان يوجد (١٣ + ٧٠) ٨٣ خليفة (إذا كان مرقس البشير أحد السبعين رسولا ، كما يقال ، له خليفة خاص فى الوقت الحاضر) . لكن بالرجوع إلى تاريخ الكنيسة ، نرى أنه لم يكن هناك لغاية القرن الخامس ، سوى خمسة أشخاص يقال إنهم كانوا خلفاء للرسل . وهم حسب الترتيب الذى وضعه قسطنطين الأكبر : بطريرك كل من روما ، والقسطنطينية ، والاسكندرية ، وانطاكية ، وأورشليم (المسيحية فى القرون العشرة الأولى ص ١١٤ ر ١١٥ ، والكنيسة من البدء لغاية القرن العشرين ص ٧٥) ، الأمر الذى يدل على أن المسيح لم يأمر تلاميذه أن يقيموا خلفاء لهم ، أو أنهم أقاموا من تلقاء أنفسهم أمثال هؤلاء الخلفاء .

(ح) أخيراً نقول : إن شخصاً ينتخب بواسطة رجال الدين أو أفراد الشعب لكى يكون خليفة لرسول ما ، لا يكون إلا

خليفة له من الناحية الاسمية . لأن الخليفة الحقيقي للرسول، هو المعين منه شخصياً للخلافة . وللايضاح نقول: إن موسى النبي ، بناء على أمر الله، أقام يشوع خليفة له لكي يتمم رسالته . ولكن نظراً لأن يشوع قد تممها ، لم يطالب الله منه أن يقيم خليفة من بعده . ومن ثم لم يقم بنوا إسرائيل خليفة آخر لموسى من تلقاء أنفسهم . فإذا أضفنا إلى ما تقدم أن الرسل لم يسندوا مهمة القيام بالعشاء الرباني إلى فئة خاصة من المؤمنين ، بل إلى المؤمنين جميعاً كما ذكرنا في الفصل السابق ، لا يبقى مجال للظن بأنه يجب أن يكون هناك خلفاء للرسل بعد صعود المسيح ، لهم دون غير من المؤمنين امتياز القيام بهذا العشاء .

٤ — [إن الرسل بتعيينهم للأساقفة والقسوس ، وضعوا أساس الخلافة الرسولية ، حتى تظل في الكنيسة إلى انقضاء الدهر . إذ أن الأساقفة اعظم درجة من القسوس ، ويمكن أن يعينوهم تبعاً لذلك في وظائفهم] .

الرد : (ا) إن الأسقف هو القسيس بعينه ، فقد قال الوحي عن بولس الرسول « انه استدعى قسوس الكنيسة . . ولما جاؤا إليه ، قال لهم : احترزوا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها (ليس قسوساً بل) أساقفة » (أعمال ٢٠ . ١٨) . كما قال عن الشيوخ (الذين هم القسوس أنفسهم كما ذكرنا فيما سلف) في كريت ، إنهم اساقفة (تيطس ١ : ٥ — ٧) . ولذلك

فان هؤلاء الأشخاص كانوا يدعون قسوساً بالنسبة إلى سنهم ، وأساقفة بالنسبة إلى عملهم ، وهذا العمل هو النظارة أو بالحرى رعاية المؤمنين بواسطة مساعدتهم على السلوك فى حياة الإيمان والتقوى كما ذكرنا .

(ب) أما الدعوى [بأن الأسقف يمكن أن يسمى قسيساً ، لأنه بجانب قيامه بعمله الشخصى يقوم بكل أعمال القسيس . ومن ثم لا مجال للاعتراض على وجوب وجود أساقفة وقسوس معاً فى الكنيسة] ، فلا يجوز الأخذ بها . لأن الوحى لا يقول عن الأسقف انه قسيس . بل يقول عن القسيس انه اسقف (اعمال ٢٠ : ١٨) .

وهذا لا يجوز إلا إذا كان القسيس هو الأسقف بعينه ، لأن القسيس (فى الجماعات التى يوجد بها قسوس وأساقفة معاً) لا يعمل كل أعمال الأسقف فيها .

(ح) ومما يقضى على كل اعتراض بشأن هذا الموضوع (أولا) إن بولس الرسول ذكر فى رسالته إلى أهل فيلبى أنها إلى جميع القديسين فى المسيح يسوع الذين فيها مع أساقفة وشمامسة (١ : ١) ، دون أن يشير بكلمة واحدة إلى أى قسوس بينهم . وقوله هذا لا يعلل إلا بأحد أمرين : اما أن يكون الأساقفة هم القسوس أنفسهم ، وإما أن يكون القسوس الذى فى فيلبى كانوا قد سافروا أو انتقلوا جميعاً إلى السماء وقتئذ . وبما أن التعليل الثانى غير معقول أو مقبول ، إذاً يكون الأساقفة هم القسوس .

(ثانياً) إن بولس الرسول لم يذكر في الرسالة التي بعث بها إلى تلميذه تيموثاوس ، إلا الشروط الواجب توافرها في الأساقفة والشمامسة (١ تيموثاوس ٣) ، وهذا دليل واضح على أن الأساقفة هم القسوس كما ذكرنا . وقد أشار إلى هذه الحقيقة اقليمس أسقف روما في القرن الأول ، فقال : « ان أصحاب الرتب هم الأساقفة والشمامسة ، وقد يدعون مجلس الشيوخ » (الآباء في القرون الثلاثة الأولى ص ١٥) ، فهو لم يذكر قسوساً مع الأساقفة والشمامسة . وفي الوقت نفسه ذكر أن الأساقفة والشمامسة هم مجلس الشيوخ (أو بالحرى القسوس) ، لأن الأساقفة والشمامسة معاً كانوا من الأشخاص المتقدمين في السن ، والذين لهم أولاد يخضعون لهم بكل وقار (١ تيموثاوس ٣ : ٤)[1] .

---

(١) أما التفرقة بين القسوس والاساقفة فقد حدثت في منتصف القرن الثاني ، وذلك عندما قام النزاع بين بعض القسوس والبعض الآخر ، من جهة شئون الخدمة التي كانوا يقومون بها . فاستحسنوا أن يقيموا لهم رئيساً أطلقوا عليه وحده لقب « الأسقف » (موسهيم ص ٣١ و٣٢ و٦٢ و٦٣) ، لكي يوزع عليهم أعمالهم ويقضي على المنازعات التي كانت تقوم بينهم. وهكذا الحال من جهة إقامة البطريرك ، فانه عندما كثر الاساقفة في البلاد الكبيرة ، استحسنوا أن ينتخبوا لهم رئيساً ، دعي في أول الأمر رئيس الاساقفة ، ثم البطريرك ، ثم البابا . وبعد ذلك اسند هذا الشخص الى نفسه منصب خليفة للرسول الذي نشر الإنجيل في بلاده في أول الأمر ، أو للرسول الذي فضله على غيره من الرسل . فمثلا ليس هناك دليل كتابي أو تاريخي يثبت أن بطرس الرسول أسس كنيسة روما ، ومع ذلك فإن البطريرك بها اسند نفسه الى هذا الرسول .

٤ — [ان الرسل وحدهم هم وكلاء سرائرالله (١ كورنثوس ٤ : ١٠) ، كما أن المسيح أقامهم لعمل الخدمة (أفسس ٤ : ١١ — ١٤) ، أو بالحرى خدمة العشاء الربانى . ومن ثم يكون القيام بهذا العشاء محصوراً فى أيديهم وأيدى خلفاء لهم] .

الرد : (ا) فضلا عن أن الرسل لم يعينوا خلفاء لهم كما ذكرنا ، الأمر الذى لا يدع مجالا لهذا الاعتراض ، فان الأسرار أوالسرائر ليست بركات غير منظورة تعطى بوسائطمنظورة كما يقال (لأنه ليس لهذا التعريف أى أساس فى الكتاب المقدس) ، بل هى (كما يتضح من هذا الكتاب) حقائق روحية أعلنت للمسيحيين بعدأن كانتمجهولة من قبل . فقد قال الوحى عن « سر المسيح » : « الذى فى اجيال أخر لم يعرّف به بنو البشر ، كما قد اعلن لرسله القديسين وانبيائه (فى العهد الجديد) بالروح ، ان الأمم شركاء فى الميراث والجسد ونوال موعده فى المسيح بالإنجيل » (افسس ٣ : ٤ و ٥) . ومن ثم فالله باعلان هذه الحقيقة للرسل قداعلن ما نسميه سراً . والسرائر أو الأسرار كما يتضحمن الكتاب المقدس، هى «سر الآبوالمسيح» (كولوسى ٢ : ٢ — ٩) ، و « سر التقوى » (١ تيموثاوس ٣ : ١٦) و « سر مشيئة الله »(أفسس ١ : ٩) و« سر المسيح » (أفسس ٣ : ١١) و « سر الانجيل » (٦ : ١٩) و «سرالإيمان» (١ تيموثاوس ٣ : ٩)، و « أسرار ملكوت السموات » الخاصة بتدبيرات الله السياسية من جهة ملكوته فى العالم الحاضر (متى ١٣: ٣ — ٥) . أما ما يقال عنه « الأسرار السبعة » ، عند بعض

المسيحيين ، فليس له أساس فى الكتاب المقدس كأسرار .

(ب) كما أن الخدمة التى أقام المسيح رسله لتأديتها ، هى « خدمة الكلمة » ، أو بالحرى البشارة بالمسيح المخلص حتى يتمتع الناس بالخلاص من الخطية ونتائجها الشنيعة ، كما يتضح من (مرقس ١٦ : ١٥ ، أعمال ٢٠ : ٢٤ ، ٢ تيموثاوس ١٤ : ٥) . ولعل أوضح دليل على ذلك ان الخدمة المذكورة مسندة فى الكتاب المقدس إلى الرسل والأنبياء والمبشرين والرعاة والمعلمين (أفسس ٤ : ١١ — ١٤) ، وليس إلى الأساقفة والقسوس والشمامسة والمرتلين الذين لهم دون غيرهم ، حق القيام بصلاة العشاء الربانى ، كما يقول المسيحيون السابق ذكرهم .

٥ — [إن المسيح لم يسلم العشاء الربانى إلا لتلاميذه ، ومن ثم يجب أن يكون لهؤلاء خلفاء يتولون القيام به من بعدهم] .

الرد : (ا) فضلا عن أن المسيح أعطى العشاء الربانى لتلاميذه ليس بصفتهم الشخصية بل بصفتهم باكورة المؤمنين الحقيقيين . وفضلا عن أن الرسل لم يعينوا خلفاء لهم ، وأنهم كانوا يسلمون القيام بهذا العشاء لكل المؤمنين ، كما ذكرنا فى الفصل السابق ، فانه بالرجوع إلى الكتاب المقدس نرى أن الرب اختار تلاميذه وعلمهم ، ليس لكى يعلموا اشخاصاً معينين حتى يكونوا خلفاء لهم ، بل لكى يعلموا كل المؤمنين فى العالم حتى يكونوا جميعاً تلاميذ له . فقد قال للرسل « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن

والروح القدس ،وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به » (مت ٢٨ : ٢٠) — ومن ثم كان كل المؤمنين يدعون « تلاميذ » (أعمال ١٩ : ١) ،أو بالحرى « تلاميذ الرب» .

(ب) فاذا أضفنا إلى ذلك ، أن فريضة الفصح التي كانت رمزاً لعشاء الرب من بعض الوجوه[1] ، سلمها الله لهرون وموسى ليس لكى يقوما بها وحدهما ، أو هما والكهنة واللاويون فحسب ، بل لكى يوصيا جميع أفراد الشعب بالقيام بها ؛ ولذلك كانت كل عائلة تقوم بهذه الفريضة في المنزل الذى تسكنه ، دون أن تلجأ إلى كاهن أو لاوى على الإطلاق (خروج ١٢ : ١ — ١٠) — اتضح لنا أن فكرة إسناد القيام بالعشاء الربانى إلى فئة خاصة من المؤمنين ، لا سند لها فى العهد الجديد ، أو القديم أيضاً ، لاسيما وقد اتضح لنا في الفصل السابق أن هذا العشاء ليس ذبيحة لغفران الخطايا ، حتى كان يستلزم الأمر وجود أشخاص معينين للقيام به.

٦ — [إن الرسل عندما كانوا يحضرون اجتماع العشاء الربانى، كانوا هم الذين يقومون طبعاً برفع الشكر لله ،وتقديم هذا العشاء للمؤمنين . ولذلك لابد أنهم عينوا خلفاء لهم للقيام بهذين العملين في حالة غيابهم أو انتقالهم من العالم] .

الرد : فضلا عن أن الرسل لم يقيموا خلفاء لهم كما اتضح لنا مما

---

(١) لأن هذه الفريضة كانت تذكاراً لخلاص بنى اسرائيل قديماً من الاستعباد لفرعون ومن القتل بسيف الملاك المهلك — والعشاء الربانى تذكار لخلاصنا من عبودية الخطية وعذابها الأبدى

سلف ، فاننا إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس نرى أن المؤمنين كانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات» (أعمال ٤٢:٢)، وأنهم كانوا يجتمعون معاً لكسر الخبز (أعمال ٧:٢٠) وكل ما كان يفعله الرسل وقتئذ هو التعليم وحده ، كما يتضح من باقي هذه الآية . وذلك بسبب المواهب الخاصة التي كانت لديهم ؛ ومن ثم لا مجال للاستنتاج الذي نحن بصدده — أما إذا كان الرسل قد قاموا بالشكر أو توزيع العشاء الرباني في الاجتماع المذكور ؛ فان هذا لم يكن بصفتهم الشخصية كرسل ، بل بصفتهم العامة كمؤمنين حقيقيين لهم امتياز القيام به ، كغيرهم من هؤلاء المؤمنين .

٧ — [ان الوحي ، وان كان قد سجل لنا أن المؤمنين في ترواس (أعمال ٢٠ : ٧) كانوا مجتمعين معاً لممارسة العشاء الرباني ، لكنه سجل لنا أن بولس وحده هو الذي كسر الخبز (عدد ١١) ؛ الأمر الذي يدل على أن المؤمنين العاديين لا يجوز لهم القيام بهذا العشاء] .

الرد : بالرجوع إلى الاصحاح المقتبسة منه هذه الآية ، يتضح لنا أنه ليس من المعقول أن المؤمنين المذكورين كانوا قد اجتمعوا لعمل العشاء الرباني في المساء (وهو الموعد الذي عمل المسيح فيه هذا العشاء ، ونهج الرسل بعده على منواله) ، ولكنهم لم يعملوه الا بعد منتصف الليل عندما كسر بولس الرسول الخبز . وإذا كان الأمر كذلك ، اتضح لنا أن الغرض من كسر الخبز هنا ، هو لتناول الطعام العادي . ومما يثبت هذه الحقيقة أن الوحي يقول عن

الرسول إنه « كسر خبزاً وأكل » ، أى أنه وحده هو الذى أكل — ذلك لأنه كان مزمعاً أن يسافر فى صباح اليوم التالى إلى بلاد بعيدة (١٣ — ١٦) — ومما يثبت أيضاً أن هذا هو المعنى المقصود بكسر الخبز هنا ، أن الوحى قال فى موضع آخر عن الرسول المذكور إنه لما هبت الزوابع على السفينة التى كان يركبها ، وخاف المسافرون الذين كانوا معه وامتنعوا عن الأكل أياما ، قال لهم « التمس منكم أن تتناولوا طعاما ، لأن هذا يكون مفيداً لنجاتكم . . ولما قال هذا أخذ خبزاً وشكر الله أمام الجميع وكسر وابتدأ يأكل . . » . (أعمال ٢٧ : ٢٧ — ٣٧) ، وما أكله وقتئذ كان طبعاً طعاما عادياً .

٨ — [إن سوء التصرف الذى حدث مرة بين مسيحيى كورنثوس عند ممارسة العشاء الربانى (١ كورنثوس ١١ : ١٧ — ٢٢) ، يقتضى إسناد القيام بهذا العشاء إلى خلفاء للرسل ، حتى يحافظوا على النظام عند ممارسته] .

الرد : فضلا عن أن الرسل لم يقيموا خلفاء لهم، ولا يجوز لنا قانوناً إقامة أمثال هؤلاء الخلفاء من تلقاء أنفسنا ، لأن الوحى الإلهى لم يأمرنا بذلك ، ولأن من يقيمهم يجب أن يكون أيضاً أسمى منهم مقاما ، نقول : ليس من حقنا أن نعمل نظاماً للعبادة لم ينص عليه الكتاب المقدس ، لأننا لسنا أحكم من الله ، أو أكثر غيرة منه على مجده ، أو أعظم فهماً منه لطريقة العبادة المرضية

أمامه . لذلك فإن حصر القيام بالعشاء الربانى فى فئة خاصة من المؤمنين ، مهما كان مركزهم ، لتجنب ما عساه أن يحدث من سوء التصرف فى العبادة (كما يقال) ، هو محاولة لإصلاح خطأ بارتكاب خطأ أكثر منه شراً ، لأن عدم التقيد بأقوال الوحى هو مخالفة دونها كل مخالفة . وإذا كان ذلك كذلك ، فان ما يجب علينا عمله ، ليس أن نعدّل طريقة العبادة التى وضعها الله لنا حتى تكون ملائمة لحالتنا الروحية الضعيفة ، بل أن نصلى حتى يرفع الروح القدس نفوسنا إلى المستوى الذى يتناسب مع القيام بهذه العبادة ، وحينئذ سوف نختبر عملياً فى نفوسنا قيادة هذا الروح لنا فى العبادة من أولها إلى آخرها ، وسوف نختبر مع هذه القيادة هيبة الله التى تجعل كل الأمور تسير بنظام يفوق كل نظام .

٩ — [ان البركة على العشاء الربانى خاصة بالحكماء ، فقد قال الرسول « أقول كما للحكماء . . احكموا أنتم فى ما أقول : كأس البركة التى نباركها ، أليست هى شركة دم المسيح ! الخبز الذى نكسره ، أليس هو شركة جسد المسيح ! . . لا تقدروا أن تشتركوا فى مائدة الرب وفى مائدة شياطين » (١ كورنثوس ١٠ : ١٥ — ٢٢) ، والحكماء المذكورون هم خلفاء الرسل الذين لهم وحدهم حق القيام بالعشاء الربانى] .

الرد : فضلا عن أن هذه البركة يراد بها الشكر كما ذكرنا فيما سلف ، فانه بالرجوع إلى الأصحاح المقتبسة منه الآيات التى أمامنا ، يتضح لنا أن الرسول لا يقصد بكلمة الحكماء أشخاصاً

يتصفون بالحكمة دون غيرهم من المؤمنين حتى كان يظن أنهم خلفاء للرسل ، بل يقصد بها توبيخ المؤمنين عامة فى كورنثوس لكى يقفوا موقف الحكماء ، ويستطيعوا تبعاً لذلك أن يحكموا حكماً صائباً فى ما كانوا يفعلون ، ويعرفوا أيضاً خطأهم وزيغانهم عن الحق، لأنهم كانوا يشتركون فى مائدة الشياطين ، أو بالحرى مائدة الوثنيين (١ كورنثوس ١٠ : ٢٠) . والحال أن من لديه ذرة من الحكمة أو العقل السليم ، لا يمكن أن يشترك فى هاتين المائدتين معاً ، وذلك للتناقض الكبير بينهما .

١٠ — [كما أنه لا يجوز لأحد المؤمنين العاديين أن يقوم بالعماد ، كذلك لا يجوز لأحدهم أن يقوم بالعشاء الربانى] .

الرد : هناك فرق كبير بين الغرض من القيام بالعماد والغرض من القيام بالعشاء الربانى . فالغرض من العماد هو إشهار الإيمان بالمسيح ، ومن ثم يجب أن يتم بواسطة الكارز بالإنجيل الذى آمن على يديه من يريد العماد ، لكى يكون هذا الكارز شاهداً على إيمانه ، كما يتضح من (أعمال ٨ : ٢٦ — ٣٨)(١) . أما الغرض من ممارسة العشاء الربانى ، فهو تذكر محبة المسيح التى ظهرت فى موته على الصليب كفارة ، وهذا العمل خاص بجميع

---

(١) وقد أشار موسهيم إلى هذه الحقيقة فقال إن كل (عامل) فى انتشار الديانة المسيحية كان يعمد تلميذه الذى آمن على يده . لكن لما انتظمت الكنائس وترتبت تحت قوانين ، أصبح الاسقف أو الراعى هو الذى يعمد الداخلين إلى الكنيسة (ص ٤٣)

المؤمنين الحقيقيين دون استثناء (لأن المسيح مات من أجلهم جميعاً ، كجماعة و كأفراد أيضاً)، ومن ثم يجب أن لاينفرد بالقيام به واحد منهم ، عند اجتماعهم معاً كجسد واحد .

١١ — [ان رب العائلة فى العهد القديم،هو الذى كان يوزع على أفراد عائلته خروف الفصح ، ولذلك لاشك أن الرسل أقاموا أشخاصاً يكونون فى منزلة الآباء الروحيين ليتولوا توزيع العشاء الربانى على المؤمنين ، لأن خروف الفصح كان رمزاً لهذا العشاء من بعض الوجوه] .

الرد : (ا) فضلا عن انه ليست هناك آية فى الكتاب المقدس تؤيد هذا الاستنتاج، نقول: إن رب العائلة المسيحية هو الرب يسوع المسيح نفسه ، وهو يوجد باللاهوت فى اجتماع ذكرى موته (كما ذكرنا فيما سلف) ، وذلك كرأس الجسد ورئيس المتكأ ، والذى له وحده أن يقول للمؤمنين ، بوصفه فاديهم الأوحد ، هذا القول الصادق العظيم : « هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم . . . وهذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم » . ومن ثم ، وإن كان الذين يقومون بالشكر والتوزيع أفراداً من المؤمنين ، وذلك بارشاد الروح القدس وقيادته كما ذكرنا فيما سلف ، يجب أن تتجه نفوس المؤمنين جميعاً إلى المسيح . وبالإيمان القلبي بحضوره الإلهى معهم ، يتناولون من يده الإلهية الخبز والكأس ، بكل تعبد وخشوع لشخصه الكريم .

(ب) فاذا أضفنا إلى ذلك (أولا) أنه لو كان القيام بالعشاء الربانى مناطاً بأشخاص معينين كالقسوس (مثلا)، وكان هؤلاء معرضين للتغيب عن بلدتهم بسبب مرض مفاجىء أو سفر عاجل، لترتب على ذلك حرمان المؤمنين التابعين لهم من ممارسة هذا العشاء (ثانياً) وإن كان هؤلاء الأشخاص لم يتعرضوا لهذا أو ذاك، لكن سقطوا فى خطايا خاصة، لما استطاعوا (إن كان لهم ضمير صالح) أن يقوموا بالعشاء المذكور. وإن تجاسروا على القيام به مخالفين فى ذلك كلمة الله، كانت صلاتهم جسدية، وضعفت تبعاً لذلك الحالة الروحية للمؤمنين التابعين لهم — اتضح لنا أن إسناد القيام بالعشاء الربانى إلى المؤمنين الحقيقيين عامة، أمر يتوافق مع الحق الإلهى كل التوافق.

١٣ — [من يقوم بالعشاء الربانى من غير الكهنة الرسميين، يكون مثله مثل قورح ورفقائه، الذين ثاروا ضد موسى وهرون وقالوا لهما: «إن الجماعة بأسرها مقدسة، وفى وسطها الرب. فما بالكما ترتفعان على الجماعة!» — وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن انشقت الأرض من تحتهم وابتلعتهم (العدد ١٦: ١ — ٢٣)].

الرد: (أ) إن الكهنة أشخاص كانوا يقامون من الله فى العهد القديم لتقديم الذبائح الحيوانية كفارة عن أنفسهم، وعن غيرهم من البشر. أما القسوس فلم يقاموا لهذا الغرض، كما أنهم لم يدعوا دون غيرهم من المؤمنين كهنة على الإطلاق. فضلا عن

ذلك، فان الكتاب المقدس لا يدعو العشاء الرباني ذبيحة ، بل وينفي وجود أي ذبيحة للتكفير عن الخطية بعد صلب المسيح ، فقد قال « وحيث تكون مغفرة لهذه (أي للخطايا) لا يكون بعد قربان عن الخطية » (عبرانيين ١٠ : ١٨)، لأن الكفارة التي قدمها المسيح مرة على الصليب ، وفت كل مطالب عدالة الله وقداسته من جهة المؤمنين الحقيقيين إلى الأبد . فقد قال الوحي عن المسيح إنه دخل بدم نفسه إلى الأقداس السماوية فوجد فداء (ليس لفترة من الزمن بل فداء) أبدياً (عبرانيين ٩ : ١٣) . وإذا كان ذلك كذلك ، لا يكون هناك مجال لقيام كهنة بالمعنى الحرفي في العهد الجديد(١) . ويكون القيام بالعشاء الرباني ليس قاصراً على فريق خاص من المؤمنين ، بل يكون مباحاً لهم جميعاً كما ذكرنا .

(ب) كما أننا إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس ، نرى أن الله قد عين في العهد القديم سبطاً واحداً لخدمة الهيكل هو سبط لاوي (خروج ٢٨ : ١ر٢) ، ومن ثم كانت الخدمة في هذا الهيكل قاصرة على السبط المذكور . أما في العهد الجديد فان الرب لم يأمر باقامة هيكل من حجارة أو خشب (أعمال ٧ : ٤٨ر٤٩) ، بل

---

(١) أما كهنوت العهد الجديد ، فهو كهنوت روحي محض ، يشترك فيه جميع المؤمنين الحقيقيين على السواء . فقد قال بطرس الرسول عنهم إنهم جميعاً كهنوت ملوكي (١بطرس ٢ : ٥ — ٩) . وقال يوحنا الرسول عنهم إن المسيح أحبهم جميعاً وغسلهم من خطاياهم بدمه وجعلهم ملوكاً وكهنة لله أبيه (١ يوحنا١-٩) — وذبائح هؤلاء المؤمنين هي طبعاً ذبائح روحية كما ذكرنا في الفصل السابق .

جعل قلوب المؤمنين وأجسادهم هيكلا له (١ كورنثوس ٦ : ١٩). كما أنه لم يعـين هو أو رسله جماعة خاصة للتفرد بالتقرب إليه وخدمته ، بل جعل هذين الامتيازين من حق المؤمنين الحقيقيين جميعاً (عبرانيين ٤ : ١٤ — ١٦) ، لذلك ليس هناك مجـال للاعتراض الذى نحن بصدده — هذا مع العلم بأن غرض قورح ورفقائه لم يكن (كما يتضح من سفر العدد) تمجيد الله ببسط سيادته وحده على الشعب (كما ادعوا)، بل إسقاط موسى وهرون من مكانتهما ليتولوا هم مركز السيادة عوضاً عنهما. ومن ثم فموضوع قورح ورفقائه لا ينطبق على مؤمنى العهد الجديد الذين يخضعون معاً لرياسة الرب حسب وصيته الواردة فى الكتاب المقدس ، بل على الأشخاص الذين يريدون أن يكون لهم وحدهم كهنوت خاص يترأسون به على غيرهم. لأن الكتاب المقدس يعلن أن الكهنوت والرياسة الدينية الآن هما من اختصاص المسيح وحده (عبرانيين ٥ — ٧ ، ١ كورنثوس ١٢) ، ولذلك فكل من يدعى بأحقيته فيهما من البشر، يكون متعدياً على اختصاص المسيح، كتعدى قورح ورفقائه على مقـام موسى وهرون (يهوذا ١ : ١١) .

١٣ — [كان صموئيل النبي وحده هو الذى له حق تقديم الذبيحة ، ولذلك عندما قام شاول بتقديمها اعتبر أحمق وزال الملك عنه (١ صموئيل ١٣ : ٨ — ١٤) . وهكذا الحال من جهة العشاء الربانى ، فمن يقومون به من غير الـكهنة الرسميين يـكونون حمقى، ولا يمكن ان يثبتوا امام الله]

الرد : فضلا عن أن العشا الرباني ليس ذبيحة ولا يتطلب القيام به وجود كهنة بالمعنى الحرفي كما ذكرنا ، فإن الرب لم يأمرنا أن ننتظر شخصاً معيناً لـكي يقوم بهذا العشاء لأجلنا . ومن ثم فإن انتظارنا لإنسان ما لهذا العرض ، يكون مخالفة لوصية الرب وتنكراً لرياسته ، واعتماداً على البشر دونه ، الأمر الذي يبعد قلوبنا عنه ويحرمنا من بركاته . ومن ثم إذا كان هناك انتظار يجب علينا مراعاته ، فهو انتظار بعضنا للبعض الآخر ، حتى يستكمل عددنا قبل الاشتراك في العشاء الرباني. وذلك بناء على قول الرسول « إذاً يا أخوتي ، حين تجتمعون للأكل (أي لأكل العشاء المذكور) انتظروا بعضكم بعضاً » (١ كورنثوس ١١ : ٣٣) . ولذلك فالحادثة الواردة في هذا الاعتراض لا يمكن تطبيقها على ممارسة العشاء الرباني .

وإذا كان ذلك كذلك، فليس هناك مجال للاعتقاد بوجوب وجود خلفاء للرسل أو كهنة بالمعنى الحرفي، يكون من حقهم وحدهم القيام بالعشاء الرباني ، أو قيادة المؤمنين في عبادتهم العامة — ونظراً لأننا تحدثنا عن هذه الموضوعات بالتفصيل في كتاب «الكهنوت»، نكتفي بما ذكرناه .

٤

«السكر» فى القرنين الثانى والثالث (١)

إن الإنسان فى كل العصور ، هو بكل أسف الانسان الذى لا يثبت على حال . فآدم الذى خلقه الله فى حالة البراءة ، لم يستطع الاستمرار طويلا فى هذه الحالة ، فخالف الوصية التى سلمها تعالى له ، ومن ثم حرم نفسه من الجنة . ونوح الذى اصطفاه الله من بين آلاف الناس وحفظه من الطوفان بقدرته العلوية، سكر وتعرّى . لما خرج من الفلك واليهود الذين ميزهم الله قديماً عن كثيرين وأعطاهم الناموس ليسيروا على مقتضاه، لم يعملوا به بل انحرفوا عنه وكسروه. وكثيرون من الذين اعتنقوا المسيحية منهم وعرفوا أن الخلاص هو بالمسيح دون سواه ، سرعان ما عادوا إلى الختان والناموس

---

(١) عن (أ) The Jewish Passover By Kopler (ب) The Writers of the Ante Nicene Fathers (ج) تاريخ آباء الكنيسة فى القرون الثلاثة الاولى (د) الكنيسة من البدء إلى القرن العشرين (هـ) ريحانة النفوس فى أصل المعتقدات والطقوس (و) نظام التعليم فى علم اللاهوت القويم — وعن المراجع التى سيشار اليها فى أثناء البحث

يلتمسون القبول أمام الله بهما ، حتى تضايق الرسول منهم وقال لهم : « أيها الأغبياء ! من رقاكم حتى لاتذعنوا للحق ؟ أبا بأعمال الناموس أخذتم الروح أم بخبر الإيمـان ! » (غلاطية ٣ : ١ ـ ٣) .

وهكذا الحال من جهة صلاة الشكر الخاصة بالعشاء الربانى ، فان بعض المسيحيين الذين أتوا بعد العصر الرسولى أضافوا إليها صلوات متعددة وطقوساً متنوعة ، رغبة منهم فى إطالة هذه الصلاة وتنميقها لأغراض خاصة ، كما حصروها فى القسوس أو الأساقفة الذين اعتبروهم خلفاء للرسل ونواباً عنهم — لكن بعملهم هذا انحرفوا بالعبادة عن الغرض الالهى منها ، غير عالمين أن الوحى كامل كل الـكمال ، وأن إضافة أى شىء إلى العبادة من عندياتنا ، حتى لو كان جميلا فى نظر الناس ، هو أكبر إساءة إلى الله الذى أعطانا وحيه . وهذا هو السبب فى أنه تعالى نهى قديماً عن استعمال الازميل ، أو بالحرى أداه التحسين البشرى ، فى الحجارة التى كانت تستخدم فى عمل المذبح فى العهد القديم ، الذى كان رمزاً للسبيل الالهى نحو العباده أمامه تعالى (خروج ٢٠ : ٢٥) .

وسنرى فى هذا الفصل والفصول التالية إن شاء الله ، ما آلت إليه العبادة الروحية التى ذكرناها فى الفصل الثانى ، عندما تداخل فى أمرها البشر بالزيادة والتنميق ، كما يقولون .

أولاً — الصلاة العامة و «الشكر» ، لغاية منتصف القرن الثانى

(ا) عند اليهود المتنصرين

(اولا) — الصلاة العامة : إن العامل فى صلاة المؤمنين الحقيقيين (كما ذكرنا فى الفصلين الأول والثانى)، هو الروح القدس، لأنه هو الذى يهيئهم للصلاة ، ويرشدهم إلى الموضوعات التى يجب أن يصلوا لأجلها ، ويشفع فيهم أيضاً بأنات لا ينطق بها (روميه ٨ : ٢٧) . لكن لما ضعفت الحياة الروحية لدى الكثيرين منهم فى أواخر القرن الأول ، وعجزوا عن الانقياد بالروح القدس فى الصلاة (لأنه لا يعمل فى النفوس إلا إذا كانت مقدسة بالتمام لله) ، لجأ معظم المتنصرين من اليهود إلى الطريقة التى كانوا يسيرون عليها من قبل فى مجامعهم اليهودية . وكانت الصلاة فى هذه المجامع تتكون (كما جاء فى المشنا)(١) من خمسة عناصر (الأول) تلاوة الوصايا العشر (الثانى) صلاة موضوعة بواسطة رجال الدين لطلب المعونة والغفران من الله (الثالث) فصول منتخبة من المزامير (الرابع) درس من الناموس وآخر من الأنبياء (الخامس) تفسير أو وعظ خاص بموضوع ما — لذلك اتخذ هؤلاء المتنصرون هذه العناصر

---

(١) كلمة « مشنا » معناها « التعليم الشفوى» ، وهو مجموعة القوانين الدينية والمدنية التى كان يعملها قديماً رجال الدين لدى اليهود ، وقد جمعت فى القرن الثانى للميلاد واودعت فى التلمود . وقد ادعى رجال الدين المذكورون أنها آتت إليهم شفوياً من موسى النبى نفسه ، ومن ثم قالوا انها لا تقل فى قيمتها عن التوراه نفسها .

أساسا لصلاتهم الصباحية يوم الأحد ، بعد أن صبغوها بصبغة مسيحية

(ثانياً) «الشكر» : أما العشاء الربانى فكانوا يقومون به فى المساء ، كما فعل المسيح . غير أن يوستينوس علل القيام بهذا العشاء فى المساء وقتئذ ، بأنه الوقت المناسب للعمال والفلاحين الذين كان يتكون منهم كثير من المسيحيين فى أول الأمر(١) . وقد استمروا فى ممارسة العشاء الربانى بالانفصال عن الصلاة الصباحية لغاية القرن الثالث كما يقول بعض المؤرخين ، أو إلى القرن الخامس كما يقول بعض آخر منهم . ولما انتقلت ممارسة هذا العشاء إلى الصباح بعد الصلاة الصباحية السابق ذكرها ، دعيت هذه الصلاة «بروأنافوراً» . وأطلق على «الشكر» «أنافورا»(٢) . وكان يفصل الاثنين عن بعضهما «قبلة» عرفت بـ «قبلة السلام» أو «القبلة المقدسة» .

وقد انقسم اليهود المتنصرون من أول الأمر من جهة صيغة «الشكر» إلى فريقين :

---

(١) ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن المسيح رفع من شأن العمال الفقراء، وأزال الفوارق التى كانت بينهم وبين الأغنياء وأصحاب الأعمال

(٢) «أنا فورا» كلمة يونانية معناها تكرار كلمة أو عبارة ما ، و «برو» كلمة لاتينية معناها «قبل» ، لذلك فان كلمة «برو أنا فورا» كان يراد بها الصلاه السابقة للشكر . وكان المتنصرون يكررون معاً كل فقره من الشكر ، وذلك على النحو الذى كانوا يتبعونه عندما كانوا فى اليهودية

١ — فالمنتمون إلى الفريق الأول اتخذوا الشكر العام الذى اعتادوا عليه فى يوم السبت، أساساً «لشكر عشاء الرب». فقد كان رب الأسرة يأخذ قديماً فى هذا اليوم رغيفاً وكأساً . وبعد أن يرفع الشكر لله من أجلهما، يقدمهما لأفراد أسرته لكى يأكلوا ويشربوا. وكانوا يطلقون على هذا الشكر بالعبرية « قدوش » — وهذه الكلمة معناها « تقديس » أو « تخصيص » . وكان « القدوش » يتألف من صلاة عامة تدعى « شما » ، يليها قراءة فصول من المزامير والتوراة والأنبياء ، ثم شكر عام لله . وقبل تناول الخبز كانوا يقولون لله : « مبارك أنت يا الله ملك العالم الذى تخرج لنا من الأرض خبزاً » ، أو « مبارك أنت يا الله الذى تعطينا خبز الحياة» . وقبل تناول الخمر كانوا يقولون له : « مبارك أنت يا الله الذى أعطيتنا ثمر الكرمة» ، أو « مبارك أنت يا الله من أجل كرمة داود » .

ولذلك صبغ المنتمون إلى هذا الفريق « القدوش » بصبغة مسيحية ، فاستعملوا الصلاة الربانية بدلا من « الشما » . واستعملوا فصولا من الإنجيل والرسائل التى كانت قد وصلت إليهم وقتئذ، بدلا من فصول المزامير والتوراة والأنبياء . وألفوا عبارات شكر لله من أجل خلاص المسيح لهم ، بدلا من عبارات الشكر العامة التى كانوا يستعملونها قديماً — ولأوجه الشبه بين اللغة العبرية

وبين اللغة العربية ، اعتقد أن كلمة « قداس »[1] المستعملة الآن في بعض الأوساط الدينية ، هي بعينها كلمة « قدوش » السابق ذكرها .

وأول قدوش (أو بالحرى أول شكر) كانوا يرفعونه لله عند ممارسة العشاء الرباني ، قبل تناول الخبز هو : « نشكرك يا أبانا من أجل الحياة والمعرفة اللتين أعطيتهما لنا في ابنك يسوع المسيح ، المجد لك إلى الأبد . وكما كان هذا الخبز متفرقاً على الجبال (عندما كان قمحاً) ثم اتحد في واحد ، هكذا لتتحد كنيستك في أطراف الأرض إلى ملكوتك ، لأن لك المجد والقوة بيسوع المسيح إلى الأبد » .

أما قبل تناول الخمر ، فكانوا يقولون : « نشكرك يا أبانا لأجل الكرمة المقدسة (التي) من ذرية داود عبدك . والتي أظهرتها لنا في يسوع المسيح ابنك ، المجد لك إلى

---

(١) أما اليونان فيطلقون على هذا « القدوش » ، « ليتورجيا » أو « افخولوجون » ، ومن الكلمة الأخيرة اشتقت كلمة « خولاجي » المعروفة لدينا — والكلمتان المذكورتان معناهما عبادة أو خدمة . أما اللاتين فقد اطلقوا على العبادة المذكورة « مسا » . وهذه الكلمة مأخوذة من قول الكاهن لديهم في آخر القداس « ايتيه مسا ايه » أي « انصرفوا انتهى الاجتماع » — والقداس عند اللاتين أنواع : فقد يكون على مستوى عال أو آخر بسيط (والأول تستعمل فيه الآلات الموسيقية ، والثاني لاتستعمل فيه هذه الآلات) ، كما يكون « روتينيا — Dry » أو « خصوصياً » ، أو « تكريسياً » أو « مطبوعاً بطابع الحزن » ، عند حدوث كارثة أو وفاة

الأبد» . أو« نشكرك أيها الآب لأجل الحياة التي أعلنتها لنا في ابنك يسوع المسيح ، الذي بواسطته عملت العالم وتعتني به . هذا الذي أرسلته ليصير إنساناً، ورضيت أن يتألم ويموت لأجل خلاصنا. ثم أقمته ومجدته وأجلسته عن يمينك ، وأعطيتنا به الوعد بالقيامة من الأموات . . ونشكرك أيضاً أيها الآب من أجل دم ربنا يسوع المسيح الثمين الذي سفك لأجلنا ، ومن أجل جسده الثمين الذي نحتفل بتذكاره كما رسم لنا ، لكى نخبر بموته . لأن به لك المجد إلى الأبد آمين » .

وبعد ذلك يقولون « ونشكرك أيها الآب القدوس من أجل اسمك الذى أسكنته فى قلوبنا . ومن أجل المعرفة والإيمان اللذين أعطيتهما لنا من جهة الخلود الذى صار لنا بيسوع المسيح . لك المجد إلى الأبد » . كما يقولون « أنت أيها السيد الضابط الكل ، صنعت الكل لأجل اسمك . أنت أعطيت المأكل والمشرب للناس لكى يشكروك . أما نحن فانعم علينا بالمأكل والمشرب الروحيين بواسطة فتاك . وقبل كل شيء نشكرك لأنك قادر على كل شيء . لك المجد إلى الأبد . . أذكر يارب كنيستك وأنقذها من كل شر وكملها فى محبتك وأجمعها من الرياح الأربعة ، مقدسة فى ملكوتك الذى اعددته لها . لأن لك القوة والمجد إلى الأبد . لتأت النعمة وليعبر هذا العالم. أوصنا لابن داود ».

وأخيراً يقولون « من كان قديساً فليتقدم ، وإلا فليتب :

ماران آثا (أى الرب آت) » .

٢ — أما المنتمون إلى الفريق الثانى ، فقد استعملوا عند ممارسة العشاء الربانى ، النظام الذى كانوا يسيرون عليه عند عمل الفصح الوارد ذكره فى (خروج ١٢و١٣) ، وعند الاعتراف بفضل الله عليهم الوارد فى (تثنية ٢٦) . ومن ثم كانت العبادة، بجانب احتوائها على شكر وترنيم عن الفداء الذى عمله المسيح على الصليب ، يتخللها سؤال من أحد المؤمنين ، وجواب من آخر . ثم تنتهى باعتراف الجميع بفضل الله وإحسانه : —

(أ) فمن جهة السؤال والجواب ، كانا يسيران على النمط الآتى تقريباً : —

س : لماذا نأكل الخبز ونشرب الكأس الآن ؟

ج : لنذكر جسد المسيح الذى صلب على الصليب ، ودمه الذى أهرق عليه .

س : ولماذا رضى المسيح بالصلب ؟ .

ج : لكى يحمل قصاص خطايانا عوضاً عنا ، رحمة بنا وعطفاً علينا .

س : وهل كان من الضرورى أن يقوم بهذا العمل ؟

ج : نعم . لأن أجرة الخطية هى عذاب أبدى ، ولذلك كان لابد أن نقاسى نحن هذا العذاب، أو يحمله المسيح نيابة عنا.

س : ألم يكن لأحد غير المسيح أن يقوم بهذه المهمة ؟

ج : كلا ، لأنه هو وحده الذى استطاع بوصفه ابن الله الأزلى ، أن يفى حقوق عدالة الله التى لا حد لها .

س : وهل يدان المؤمنون الحقيقيون بسبب خطاياهم فيما بعد ؟

ج : كلا . لأن العدل الإلهى لا يطالب بحقه مرتين ، ومن ثم فبالمسيح انتقل هؤلاء المؤمنون من العبودية إلى الحرية ، ومن الحزن إلى الفرح ، ومن الظلمة إلى النور ، ومن الموت إلى الحياة .

ثم يقول الجميع : هللويا .

(ب) أما الاعتراف بفضل الله وإحسانه ، فكان يسير على النحو الآتى تقريباً :

نعترف بأننا كنا خطاة مستعبدين للخطية، ومعرضين للعذاب الأبدى. فرأى الرب مذلتنا وبؤسنا ، فخلصنا من هذا العذاب ، كما أعطانا النصرة على الخطية. ومن ثم نقلنا من الظلمة إلى نوره العجيب، ومن الأرض إلى السماء التى تفيض لبناً وعسلاً(١) روحيين .

---

(١) مما تجدر الاشارة إليه أن المتنصرين من اليهود كانوا يستعملون فى أول الأمر مع خبز العشاء الربانى ، اللبن والعسل ، اللذين كانوا يعتزون بهما قديماً (خروج ٣: ٨) ، وذلك للدلالة على أنهم وجدوا فى المسيح الشبع والسرور الابديين. وهذا ما دعاهم للاشارة اعلاه إلى اللبن والعسل من الناحية الروحية — أما الغنوسطيون الذين اتخذوا فى القرون الأولى لأنفسهم ديانة من المسيحية والوثنية=

لذلك فنحن بكل سرور نسجد له ، ونكرس حياتنا لخدمته .

(ب) عند المتنصرين من الأمم

١ — أما الذين اعتنقوا المسيحية من الأمم ولم يتصلوا باليهود المتنصرين ، فقد ساروا وفق ما تعلموه من الرسل . ومن ثم لم يتقيدوا بصلوات محفوظة أو أنظمة أياً كان نوعها ، بل كانوا يصلون بإرشاد الروح القدس ، ويقتصرون عند ممارسة العشاء الرباني على الشكر ، ولذلك كانوا يطلقون عليه « أفخارستيا » ، وهى كلمة يونانية معناها « شكر » ، كما ذكرنا فى المقدمة . غير أن المؤرخين يقولون إن بعض المتنصرين من الأمم كانوا يستعملون الصلاة الربانية مع الشكر المذكور كوسيلة لتقديس (أو بالحرى لتخصيص) الخبز والخمر ، لذكرى موت المسيح ، وإن البعض الآخر كانوا يكتفون بالشكر(١) ، دون أن يخطر ببالهم شيء من جهة هذا التقديس أو التخصيص .

ومع كلٍ ، فقد كان شكر المتنصرين من اليهود والأمم ، لغاية

= معاً ، فكانوا يستعملون الماء بدلا من الخمر ، لاعتقادهم أن الخمر هى من صنع إله يدعى إله الشر . ولذلك كانوا يعرفون بالمائيين — وإله الشر الذى قالوا عنه هو طبعاً إله وهمى لا وجود له . كما أن الخمر من حيث هى مادة ليست خطية ، إذ أن الخطية هى فى استعمالها للسكر — ولا غرابة فى ذلك ، فالمواد المخدرة (مثلا) تستعمل فى العلاج بأمر الأطباء ، لكن استعمالها فى غير العلاج خطية ، وقد تحدثنا عن آراء الغنوسطيين كثيراً فى كتاب « قضية الغفران » ، ولذلك نكتفى بما ذكرناه.

(١) وقد اشارت مجلة رسالة الكنيسة الصادرة فى فبراير ومارس سنة ١٩٧٠ إلى هذه الحقيقة ، فقالت بصفة عامة إن « ليترجية المراسيم الرسولية » خالية من الصلاة الربانية ومقدمتها .

القرن الثانى بسيطاً للغاية ، أى خاليا من المظاهر والنظم الشكلية جميعاً . فقد قال الوالى بلينى الاصغر عنهم ، إنهم اعتادوا أن يجتمعوا سراً قبل الفجر ، ويترنمون بنشيد للمسيح إلهم . ثم يتعهدون أن يمتنعوا عن السرقة والزنا والمنكر ونكث العهود . وبعد أن يأكلوا طعاما يسيراً (يقصد العشاء الربانى) ، ينصرفون إلى بيوتهم» (تاريخ الأمة القبطية ص ١٠٥) — أى أن صلاتهم لم تكن بها طقوس أو مراسيم ، كما أنه لم يكن بينهم كاهن (مثلا) يوزع عليهم هذا العشاء .

وقال موسهيم إنهم « كانوا يرفعون لله صلواتهم المتحدة ، ويعلنون فى عشاء الرب ذكرى يسوع المسيح وموته ، والخلاص الذى أكمله » (تاريخه ص ١٧) — وقوله « صلواتهم المتحدة» وليس (صلاتهم المتحدة) ، دليل على أنه لم تكن هناك صلاة واحدة يتلوها شخص معين ، ويشترك معه آخرون فى أجزاء منها، بل كانت هناك صلوات كثيرة يرفعها أشخاص كثيرون. وأن هذه الصلوات كانت متحدة فى هدفها والغاية منها ، أو بالحرى مرفوعة لله بنفس واحدة (أعمال ٢ : ٤٦)(١) . كما أن قوله « ويعلنون فى عشاء الرب ذكرى يسوع وموته » ، يستنتج منه أن هذا العمل لم يكن من اختصاص أشخاص معينين ، بل كان من

(١) أما الاعتراض بان [الصلوات المتحدة يمكن أن يراد بها صلاة القداس ، لأنه مقسم إلى صلوات كثيرة مثل صلاة الشكر ، وصلاة التقدمة ، وصلاة القرابين ، وصلاة الانجيل ، وصلاة الحجاب الخ . الخ .] ، فلا مجال له على الإطلاق ، لأن هذه الصلوات لم يكن لها وجود فى القرن الثانى ، كما اتضح لنا مما سلف .

اختصاص المؤمنين عامة .

ثانيا – الاختلاف من جهة ماهية العشاء الرباني ومركز القسوس، وأثره في العبادة من منتصف القرن الثاني الى القرن الثالث

رأينا فيما سلف أن المسيحيين كانوا (بناء على ما تسلموه من الرسل) يعتقدون أن العشاء الرباني ليس ذبيحة ، وأنه لذلك ليس مقدّما منهم إلى الرب، إنما مقدّم من الرب إليهم، ليس لكي يقدموه بدورهم إليه كذبيحة ، بل ليأكلوه ويذكروا محبته الفادية . كما أن القسوس كانوا لا يعتبرون أنفسهم رؤساء على المؤمنين أو قادة لهم في العبادة ، بل اخوة لهم يشتركون معهم فيها جنباً إلى جنب ـ لكن لم ينته النصف الأول من القرن الثاني حتى أخذت نظرة بعض المسيحيين تتغير من جهة ماهية العشاء الرباني ومركز القسوس معاً ، الأمر الذي كان له أثر كبير في الشكر الخاص بهذا العشاء ، كما يتضح فيما يلي :

(ا) الاختلاف من جهة ماهية العشاء الرباني

١ – أخذ المسيحيون في منتصف القرن الثاني يفكرون في القول إن المسيح « بارك » الوارد في (متى ٢٦ : ٢٦ ، مرقس ١٤ : ٢٢) ، وفي معنى قوله عن الخبز والخمر إنهما جسده ودمه . فرأى فريق منهم أن الخبز والخمر لا بد أنهما يتحولان إلى جسد المسيح ودمه على نحو ما ، ويكونان تبعاً لذلك ذبيحة. ورأى الفريق الآخر أن حديث المسيح عن الخبز والخمر هو حديث مجازي فحسب، وأن كلمة « بارك » لا تعني أكثر من « شكر »

كما ذكرنا فى الفصل الأول .

فمن الفريق الأول يوستينوس وأغناطيوس . فقال الأول « قربان الخبز والخمر مقدّم لله تذكاراً لآلام المسيح . وهذا القربان يصير بالصلاة جسد المسيح ودمه » . وقال الثانى « الخبز والخمر يصيران(١) جسد سيدنا الذى تألم لأجل خلاصنا ، وقام بعد موته بفضل الآب . لذلك يجب على المؤمنين أن يعترفوا بخطاياهم حتى تكون ذبيحتهم نقية، ويجب أن يتصالحوا أيضاً لكى لا تتدنس هذه الذبيحة(٢) » . ومن الفريق الثانى أكليمنضس الاسكندرى واقليمس، فقال الأول « الكتب المقدسة دعت الخمر رمزاً سرياً للدم الطاهر ، ومن ثم يكون دم الكرمة رمزاً لدم المسيح الذى سفك على الصليب » . وقال الثانى « إننا لا نذبح لله لأنه لا يحتاج إلى شىء منا ، لكننا بعمل هذا العشاء نمجد من قدّم نفسه ذبيحة عنا ، ونقدّم له بدورنا أنفسنا ذبيحة » (تاريخ الآباء فى القرون الثلاثة الأولى) .

---

(١) المراد بالصيرورة هنا ، ليس تحول الخبز والخمر إلى لاهوت المسيح وناسوته ، بل تحولهما إلى جسد المسيح ودمه فحسب ، لأن فكرة الصيرورة الأولى لم تظهر الا فى القرن السابع ، كما ذكرنا بالتفصيل فى كتاب العشاء الربانى

(٢) لو كان اغناطيوس قد أراد بالذبيحة هنا الصلاة ، لما كان هناك مجال للاعتراض عليه أما وقد قصد بها العشاء الربانى نفسه ، فقد عرض نفسه للنقد . لأنه لو كان هذا العشاء هو ذات المسيح حسب اعتقاده ، فكيف لا يكون نقياً الا إذا اعترف المؤمنون بخطاياهم ، ولا يكون مقدساً الا إذا تصالحوا ــ والحال أن المسيح (كما نؤمن جميعاً) هو فى ذاته نقى كل النقاوه وقدوس كل القداسة ، بغض النظر عن سلوكنا جميعاً

٢ — وترتب على هذا الاختلاف بين الفريقين المذكورين، اختلاف من جهة الاعتقاد بتأثير الصلاة وعمل الروح القدس فى أثناء ممارسة العشاء الربانى . فالذين لم يؤمنوا بالتحوّل ، قالوا إن هذه الصلاة هى عبادة خاصة لله يجد فيها سروره ، كما يجد فيها المؤمنون تعزية وشبعاً لقلوبهم . وفى الوقت نفسه تهيئهم للاشتراك فى هذا العشاء بتقوى وقداسة ومحبة خالصة لله ، الأمر الذى يزيد علاقتهم به وطاعتهم له . ومن جهة تأثير الروح القدس ، قالوا إنه يقدّس المؤمنين ويوحد قلوبهم معاً ، كما يعلن لهم فى الخبز والخمر صلب المسيح وسفك دمه الكريم ، بصورة تأخذ بعواطفهم ومشاعرهم . ومن العبارات المأثورة عنهم أنهم كانوا يقولون لله « نحن عبيدك المؤمنين كهنتك ، نقــدم لك الذبيحة الروحية التى هى العبادة الصادقة المقبولة لديك بالمسيح يسوع ربنا » .

أما الذين آمنوا بالتحوّل ، فقد قالوا إن الغرض من الصلاة هو تحوّل العشاء الربانى بقوة الروح القدس إلى جسد المسيح ودمه . لذلك أضافوا إلى الشكر ، صلاة أطلقوا عليها اسم «صلاة التقديس » ، ليس بمعنى التخصيص السابق ذكره ، بل بمعنى إيداع بركة فى الخبز والخمر حتى يكونا وسيلة لغفران الخطايا . ومن ثم ذهبوا إلى أن الذبيحة ، ليست هى الشكر (كما كان يعتقد الفريق الأول) ، بل إنها العشاء الربانى نفسه . ولذلك كانوا يقولون لله « نقدّم لك هذه الذبيحة التى لا عيب فيها ، ذبيحة روحيه غير

دموية(١) للحياة الأبدية ، راجين أن تقبلها(٢) على مذبحك(٣) فى الأعالى على أيدى ملائكتك ، كما قبلت ذبيحة هابيل وإبراهيم وملكى صادق » . و « نشكرك يا إلهنا لأنك جعلتنا نقف أمامك ونقدّم لك هذه الخدمة المقدسة ، ونطلب أن ترسل روحك القدوس على تقدمة كنيستك (أى العشاء الربانى) ، لكى تكون واسطة لملء الذين يشتركون فيها بالروح القدس »(٤) .

---

(١) الذبائح الروحية (كما ذكرنا فيما سلف) هى تكريس الحياة لله والصلاة والتسبيح ومساعدة الفقراء والمحتاجين (روميه ١٢ : ١ وعبرانيين ١٣ : ١٦) . أما العشاء الربانى فهو مكون من خبز وخمر ماديين ، لذلك فإن وصفه بأنه ذبيحة روحية (ان كان من الجائز أن يسمى ذبيحة) لا يقوم على أساس . كما ان القول [بأنه ذبيحة غير دموية ، مع الاعتقاد بأن الخمر التى فيه تتحول إلى ذات دم المسيح] يتضارب بعضه مع البعض الآخر ، اذ ان مثله مثل القول عن شخص ما ، إنه حى جسدياً وميت جسدياً فى نفس الوقت .

(٢) مما تجدر ملاحظته أن طلبة المؤمنين بالاستحالة لله ، أن يقبل هذا العشاء ، دليل واضح على أنهم يؤمنون بينهم وبين أنفسهم انه لايتحول إلى ذات المسيح كما يقولون . لأن المسيح ، حتى من جهة ناسوته ، مقبول لدى الله قبولا مطلقاً ، سواء أطلبوا من الله أم لم يطلبوا

(٣) ليست هناك آية واحدة فى الكتاب المقدس تدل على أنه يوجد فى العهد الجديد مذبح مادى تقدم عليه ذبائح كفارية ، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع فى كتاب « العشاء الربانى » ، فليرجع اليه القارىء إذا أراد.

(٤) لكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس يتضح لنا أن حصول المؤمنين على الروح القدس وامتلاءهم به ، لايكون بالتناول من العشاء الربانى بل بالايمان الحقيقى بالمسيح . فقد قال الوحى « إذا آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس » (افسس ١ : ١٣)

(ب) الاختلاف من جهة مقام القسوس

وقد نشأ عن الاختلاف من جهة ماهية العشاء الربانى ، اختلاف بين القسوس من جهة مركزهم بالنسبة إلى باقى المؤمنين . فالذين لم يؤمنوا منهم بالتحوّل ، ظلوا على الاعتقاد بأنهم لا يزيدون عن كونهم اخوة للمؤمنين ، لأنهم وإياهم أعضاء فى جسد المسيح ومخلصون بالنعمة مثلهم . كما ظلوا على الاعتقاد بأن الخدمة التى أسندت إليهم ، لا تجعلهم أقرب إلى الرب منهم ، لأن هذا الاقتراب ليس مؤسساً على أعمالهم أو مراكزهم ، بل على كفارة المسيح، وهذه الكفارة هى لجميع المؤمنين الحقيقيين على السواء . ولذلك كانوا لا ينفردون بالصلاة فى اجتماع العشاء الربانى (أو غيره من اجتماعات العبادة) ، بل كانوا يشتركون فيها جنباً إلى جنب مع هؤلاء المؤمنين ، وذلك تحت قيادة الروح القدس وإرشاده ، كما كانت الحال فى العصر الرسولى .

أما القسوس الذين آمنوا بالتحوّل ، فأخذوا يعتبرون أنفسهم رؤساء على المؤمنين وسادة لهم وأقرب إلى الله منهم ، ولذلك أخذوا يقومون بالصلاة من دونهم، كما أخذوا يعملون للصلاة طقوساً خاصة — فقال أغناطيوس « إن الأساقفة والشمامسة هم رؤساء الكنائس(١) ، لأن الأسقف هو الشاهد الأعظم وهو خادم الطقوس

---

(١) يتضح من هذه العبارة أنه لغاية عهد اغناطيوس كان الاساقفة هم القسوس انفسهم ، كما كانت الحال فى العصر الرسولى . لأنه لولا ذلك، لكان قد اشار إلى وجود القسوس بعد الاساقفة أو قبل الشمامسة

وموزّع الأسرار الإلهية » . وقال أيضاً « صلاة العشاء الربانى التى تتم برياسة الأسقف ، هى وحدها الصلاة القانونية . وبدونها لا يكون هذا العشاء مقبولاً لدى الله » . وقال غيره « إذا وقفتم (للصلاة) وقف الأسياد (يقصد الأساقفة) أولاً ثم الرجال والنساء » (الدسقولية ، وتاريخ الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى) — لكن بالرغم من التطور الذى حدث فى الأفخارستيا ، فإنه بالرجوع إلى التاريخ الكنسى نلاحظ ما يأتى :

١ — أن الأساقفة لم يعطلوا عمل الروح القدس فى نفوس أصحاب المواهب الروحية ، فقد قال أغناطيوس « أما الأنبياء(١) (وهم الوعاظ والمعلمون) فاسمحوا لهم أن يشكروا بقدر ما يريدون . وأن يمارسوا (أيضاً) الأفخارستيا بأنفسهم » . وقد أشار موسهيم إلى هذه الحقيقة فقال « إن كثيرين سكبوا حاسيات قلوبهم أمام الله سكيباً ارتجالياً حراً » (تاريخه ص١١٢) »

(١) إن الانبياء بمعنى الأشخاص الذين كانت تعلن لهم سرائر الله وكانوا يتنبؤن بأمور مستقبلة بارشاده ، كانت قد انتهت خدمتهم مع الرسل فى القرن الأول ، وذلك لاكتمال الوحى الالهى وقتئذ ومن ثم فالانبياء المذكورون اعلاه هم اصحاب المواهب الروحية كالوعظ والتعليم . وكان هؤلاء يدعون بهذا الاسم منذ العصر الرسولى كما يتضح مما يلى (أ) إن الرسول قال للمؤمنين « لأنكم تقدرون جميعكم أن تتنبؤا واحداً واحداً . ليتعلم الجميع ويتعزى الجميع (١ كورنثوس ١٤ : ١٩ — ٣١) الأمر الذى يدل على أن التنبؤ هنا ، هو التعليم والتعزية ، لأن هذين العملين يمكن أن يقوم بهما جميع المؤمنين بعضهم مع البعض الآخر . (ب) فضلا عن ذلك ، فان كلمة الانبياء وردت بمعنى الوعاظ ، فقد قال الوحى عن يهوذا وسيلا إنهما إذ كانا أيضاً نبيين ، وعظا الاخوة بكلام كثير وشددوهم (أعمال ١٥ : ٣٤) ، كما قال من يتنبأ ، فيكلم الناس ببنيان ووعظ وتسلية » (١ كورنثوس ١٤ : ٣) .

الأمر الذى يدل على أن إهمال معظم المؤمنين فى رفع الصلاة مباشرة إلى الله قديماً ، هو الذى جعـــل الأساقفة أو القسوس يتفردون بها .

٢ — كما أنهم (أى الأساقفة) لم يستعملوا أى صلاة موضوعة ، بل كانوا يرتجلون الصلاة من إنشائهم الشخصى . فقد كان كل واحد منهم (كما قال يوستينوس) يستعمل موهبته الخاصة . وهذه الصلاة كانت شكراً أو بالحرى (صلاة شكرية) كما قال ذهبي الفم فى (مواعظه ص ٢٠٣) ، ومن ثم لم تكن هناك صلاة موحدة فى عدد من الكنائس ، أو صلاة واحدة فى كنيسة ما . ومما يثبت ذلك أيضاً أن يوستينوس قال : « . . ثم يشكر رئيس الاخوة (يقصد القسيس أو الأسقف) ويمجد آب كل شىء باسم ابنه والروح القدس ، ويشكر باسهاب أو حسب طاقته » — وقد ظل الأمر على هذا المنوال فى بعض الكنائس حتى القرن الرابع كما قال سارابيون ، أو إلى القرن الخامس كما قال غيره ، كما يتضح من الفصل التالى .

٣ — لم تكن هناك فصول معينة من الكتاب المقدس تقرأ عند ممارسة العشاء الربانى ، بل كان يقرأ منها على قدر ما يتسع المجال ، فقد قال يوستينوس « ويجتمع فى يوم الاحد جميع المؤمنين فى مكان واحد ، فتقرأ ذكريات الرسل وأسفار الأنبياء بقدر ما يسمح الوقت » .

٤ — إن العشاء الربانى كان يوزع على القسوس (أو الأساقفة) وعلى المؤمنين عامة ، بواسطة الشمامسة ليس لغاية القرن الثالث فقط، بل ولغاية أوائل القرن الرابع أيضاً ، أو بالحرى لغاية انعقاد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م . فقد قال يوستينوس « وأخيراً يقدم الشمامسة بعض الخبز والخمر والماء المستعمل لعشاء الرب إلى القسوس وباقى المشتركين ، ويحملون البعض الآخر لمن يكون غائباً منهم ». وهذا دليل على أن العشاء الربانى مع ماقيل عنه بواسطة بعض رجال الدين إنه يتحول إلى جسد المسيح ودمه، وإنه واسطة للحصول على الغفران، لم تكن له نفس المكانة التى له فى الوقت الحاضر عند بعض المسيحيين ، أو بتعبير أدق لم يكن يعتبر أنه ذات المسيح بلاهوته وناسوته كما يعتبر الآن عند هؤلاء المسيحيين . لأنه لو كان الامر كذلك ، لكان الاساقفة أو القسوس يحرصون من بدء إقامتهم ، على وضعه بين إيديهم والقيام بتوزيعه بأنفسهم على راغبى الاشتراك فيه ، كما يحدث فى الوقت الحاضر لدى المسيحيين المذكورين.

٥

نشأة القداسات، والأدوار التي مرت بها

رأينا، فيما سلف أن الاعتقاد [بأن العشاء الرباني هو ذبيحة لمغفرة الخطايا] ظهر عند بعض المسيحيين في المـــدة الواقعة بين منتصف القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . وكان من البديهي أن يترتب على ذلك، أن يدعى الأشخاص الذين كانوا يقومون به، كهنة . فالمؤرخون لم يخطئوا إذاً عندما أجمعوا على أن بذرة القداسات نشأت في النصف الأخير من القرن الثالث — وفيما يلي الادوار التي مرت بها هذه البذرة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن:—

١ — إن اعتبار (العشاء الرباني ذبيحة توضع على مذبح، ويقوم بالصلاة أمامها كاهن) ، جعل بعض رجال الدين (كما يقول فريق من المؤرخين) يتجهون إلى نظام العبادة الذي كان مستعملا في هيكل العهد القديم، حيث كان الكهنة يقدمون الذبائح الكفارية من وقت إلى آخر. ومن ثم اقتبسوا من هذا العهد نظام الهيكل(١)

---

(١) ومما يثبت ذلك أنه جاء في سر « بخور البولس » الذي يرفع في اثناء القداس، القول : « بخوراً روحياً ندخل به إلى الحجاب في موضع قدس أقداسك » — والحجاب وقدس الاقداس هما من مستلزمات الهيكل اليهودي . أما في المسيحية (كما هي معلنة في الكتاب المقدس) فلا يوجد حجاب بيننا وبين الله ؛ إذ أنه تعالى قد شقه من أعلى إلى أسفل عندما قدم المسيح نفسه كفارة عنا على الصليب (متى ٢٧ : ٥١) ، وذلك للدلالة على كفاية هذه الكفارة وترحيبه تعالى بالخطاة التائبين في حضرته على اساسها . ولذلك قال الرسول المؤمنين « نحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة، تتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد، =

وطريقة تعيين الكهنة ، وأنواع الملابس التى كانوا يرتدونها ، ووجوب الاغتسال بالماء قبل القيام بعبادتهم . فضلا عن ذلك ، فإن الأسقف بوصفه أصبح رئيساً للقسوس ، أطلق على نفسه لقب « رئيس الكهنة» ، وأخذ مركزاً يعادل مركزهرون (رئيس كهنة اليهود قديماً(١)) من بعض الوجوه . وقد أشار موسهيم إلى إلى تأثر المتنصرين من اليهود بالطقوس الموسوية فقال : « لكن مع سطوة الرسل العظيمة لم يكن ممكناً أن تستأصل بالكلية تلك المحبة المتأصلة جذورها عميقاً للناموس الموسوى من عقول اليهود المتنصرين ، لاسيما عقول قاطنى فلسطين منهم » (ص ٤٠) . كما قال « ومذ فاز الناس الذين بيدهم زمام الكنيسة بأن يقنعوا الشعب أن يعتبروهم كخلفاء لكهنة اليهود ، حصلوا على جانب

= كما من الرب الروح » (٢ كورنثوس ٣ : ١٨) . كما أنه لايوجد الآن قدس وقدس اقداس ، بل توجد اقداس فحسب ، وهذه الاقداس هى حضره الله فى السماء (عبرانيين ١٠ : ١٩) . وقد دعانا الله جميعاً للدخول اليها بالايمان من الآن . فقد قال الرسول لنا « فاذ لنا أيها الاخوه ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم المسيح ... » (عبرانيين ١٠ : ١٩) ، كما قال « فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكى ننال رحمة ونجد نعمة عونا فى حينه » (عبرانيين ٤ : ١٦)

(١) ومما يثبت ذلك أنه جاء فى صلاة الشكر بالقداس : « يا كل حكماء اسرائيل ، صانعى خيوط الذهب : اصنعوا ثوباً هارونياً لائقاً بكرامة كهنوت ابينا المكرم رئيس الكهنة (فلان)حبيب المسيح» . وجاء فى الالحان السابقة للبولس: « هذه المجمرة الذهب النقى حاملة العنبر التى فى يد هرون الكاهن ، يرفع بخوراً على المذبح »

عظيم من الكرامة ، إذ صار لهم حق الاستيلاء على أوائل الغلات والعشور. ومن ثم جعلوا بين المعلمين والمتعلمين فرقاً أكثر مما تقتضيه حقيقة الديانة المسيحية (ص ٦٤ ر ٧٢ ر ٧٣) .

وقد وافق كثير من المتنصرين ، سواء أكانوا قبلاً من اليهود أم الوثنيين ، على هذه التصرفات جميعاً لأنهم كانوا قد ألفوا مثلها منذ حداثتهم .

غير أن فريقاً آخر من المؤرخين . يقول(١) « إن الأساقفة عندما رأوا أن بساطة العبادة التى كان يسير عليها أسلافهم حتى منتصف القرن الثالث ، تثير تهكم الوثنيين واليهود ضدهم وتجعلهم ينظرون إليهم نظرة الازدراء والاحتقار ، عملوا طقوساً للعبادة(٢)

---

(١) عن المراجع الآتية (أ) تاريخ الكنيسة لموسهيم (ب) مختصر تاريخ الكنيسة لاندر ومولر (ح) ريحانة النفوس فى أصل المعتقدات والطقوس القس بنيامين شنيدر ، والمراجع التى سوف يشار إليها فيما بعد .

(٢) كلمة « طقس » هذه ، ليست عربية بل معربة عن الكلمة اليونانية « تاكسيس » ، ومعناها « ترتيب » أو « رتبة » ، ولا علاقة لهذه الكلمة بالعبادة على الاطلاق .. والدليل على ذلك أنه جاء فى كتاب تعليم اللغة القبطية « الفافيتون ان اتاكسيس » ،أى حروف الهجاء (الف باء) بدون ترتيب . وجاء فى الكتب الدينية « ان دبوره لم يرتفع قلبها . بل كانت تذكر طقس النساء وتقول ان الرجل رأسها » (حياه الصلاة الارثوذكسية ص ٣١٧ ر ٨٢ ر ٢٤٦) ، ومع ذلك فقد استعمل بعض المسيحيين هذه الكلمة للدلالة على الحركة التى يشيرون بها إلى حقيقة دينية، فى صلواتهم

المسيحية ، لكى يضعوا حداً لتهكم هؤلاء وأولئك — وهكذا دخلت الطقوس والمراسيم الدينية إلى بعض الجماعات المسيحية ، كما يقول موسهيم « بدون اقتضاء أو رضا الناس الصالحين الراسخين ، إذ أن السبب الأصلي في دخولها هو اعوجاج الجنس البشرى ، الذى يسر بالمظاهر الدينية أكثر من التقوى » . وسواء أكان الرأى الأول هو الصواب ، أم كان الثانى هو الصواب ، فإن العبادة التى كانت فى أول الأمر فى منتهى البساطة ، أخذت تحل محلها ابتداء من أواخر القرن الثالث ، عبادة شكلية طقسية .

٢ — كما أنه عندما اعتنق المسيحية كثير من علماء اليهود وفلاسفة الوثنيين فى القرن الثالث ، أخذ العقل يحل فى العبادة محل الروح ، والمظهر محل الجوهر . ولذلك فالصلوات التى كانت ترفع إلى الله عند ممارسة العشاء الربانى ، وكانت من أولها إلى آخرها « أفخارستيا » أى « شكراً » ، أخذت تضاف إليها صلوات عن نواح متعددة فى الحياة الأرضية ، مثل : الصلاة من أجل المسافرين والغائبين ، والفقراء والمحتاجين ، والمرضى والمتألمين ، والزرع والحصاد والهواء ، والملوك والقادة والرؤساء . كما أن الوعظ ، بعدما كان يمارس بإرشاد روح الله وكان له أثر عظيم فى نفوس السامعين ، أخذ يصاغ فى الأساليب اليونانية الرنانة التى لا تطرب إلا الآذان ، الأمر الذى يدل على أن معظم المسيحيين أخذوا يميلون وقتئذ إلى المظاهر الدينية أكثر من الحياة الروحية .

٣ — ولما اعتنق المسيحية الامبراطور قسطنطين فى القرن الرابع ، اتجهت الأنظار إلى اجتذاب معظم الملوك والأمراء إليها ، فبذل بعض الأساقفة كل ما لديهم من جهد لإظهار العبادة المسيحية فى أجمل مظهر ممكن. فشيدوا الكنائس الفخمة، وزينوها بالصور والتماثيل الجميلة ، واستعملوا البخور والشموع(١) ، كما ارتدوا

---

(١) كان البخور يستعمل قديماً لدى اليهود فى عبادتهم الطقسيه (خروج ١٠ : ١٥) رمزاً للصلاة التى تصعد إلى الله وتحوز رضاه . وكان يستعمل لدى الوثنيين لاكرام الهتهم واجراء الطقوس الخاصة باسرارها . أما عند المسيحيين ،فكان يستعمل فى القرون الثلاثة الأولى لاصلاح رائحة الكهوف التى كانوا يجتمعون للصلاة فيها. ثم استعمل بعد ذلك عند بعض المسيحيين فى مراسيم العبادة التى اصطلحوا عليها فى القرن الرابع ، للغرض الذى كان يستعمل لأجله لدى اليهود قديماً . وقد عرف الانقياء من الارثوذكس أن البخور ليس عنصراً هاماً فى العبادة ، بل هو مجرد رمز لحقيقة روحية كما ذكرنا ، ولذلك قالوا « إن رائحة البخور الذكية المرتفعة إلى العلاء، ترمز الى صلوات القديسين » (كتاب لماذا أنا ارثوذكسى ص ٤١) . كما قالوا « الدموع أثناء الصلاة هى علامة الحياة الطيبة. فاسكبوا الدموع أمام الله لكى يصير صلاتكم كالبخور أمامه » (الصلاة الارثوذكسية ص ٤٥٩) . واذا كان الأمر كذلك ، يجب أن لانستعمل البخور فى عبادتنا على الاطلاق ، بل نجتهد أن نكون قديسين فى حياتنا حتى تكون عبادتنا مقبولة أمام الله • لأنه لا فائدة من البخور ان كانت صلواتنا غير مقبولة أمامه ، ولا ضرورة لهذا البخور ان كانت مقبولة • اذ أننا لانعيش الآن فى عهد الرموز بل فى عهد الحقائق .

أما من جهة استعمال الأضواء فى العبادة ، فنقول : إن المنارة كانت تضاء ليلا ونهاراً لدى اليهود فى القدس (خروج ٢٥ : ٣١) رمزاً لأن المسيح هو النور الحقيقى الذى يجب أن نهتدى به فى حياتنا (١ يوحنا ١ : ٥) . وكانت السرج تضاء لدى

أثناء قيامهم بالصلاة ملابس خاصة ، حليت بالذهب والأحجار الكريمة . فضلا عما تقدم ، فقد جمعوا الكثير من الألحان الموسيقية ووقعوا عليها الصلوات والتسابيح التي عملوها . وبعد ذلك أضافوا إلى الطقوس التي وصلت إليهم ، طقوساً أخرى تجذب الأنظار الجسدية وتستهويها . فثار الروحانيون ضد الأساقفة المذكورين ، وحاولوا العودة بالعبادة المسيحية إلى بساطتها الأولى ، أو بالحرى إلى روحانيتها الأولى ، لكنهم لم يفلحوا كثيراً ، لأن الأغلبية الساحقة من الناس كانت (كما لا تزال) تجرى وراء المظاهر الدينية الخلابة. وقد وصف المؤرخون العبادة في هذا القرن فقالوا « إن الصلوات فقدت الكثير من بساطتها الأولى وصارت مفخفخة ، كما دخلت مع الترانيم التي كانت تنشد في أثناء العشاء الرباني ، بعض المزامير التي كتبها داود النبي » .

٤ — وفي أواخر القرن الرابع تقريباً ، أخذ عدد كبير من

= الوثنيين أمام الأصنام اكراماً وتمجيداً لها . أما عند المسيحيين الأوائل فكانت الشموع تستعمل لاضاءة الكهوف التي كانوا يجتمعون للعباده فيها وقتئذ. ثم استعملت بعد ذلك عند بعض المسيحيين ، رمزاً لنور الله أو نور الانجيل . لكن استعمالها لهذا الغرض لا مبرر له على الاطلاق ، لأننا لا نعيش في عهد الرموز بل في عهد الحقائق كما ذكرنا . وقد عرفنا من الكتاب المقدس أن السبيل الحقيقي للتمتع بنور الله ، هو نقاوة القلب والسلوك بالقداسة أمامه (متى ٥ : ٨ ، عبرانيين ١٢ : ١٤) ، وأن السبيل لاعلان نور الانجيل للناس ، هو تطبيق تعاليم الانجيل على حياتنا ، إذ بهذه الوسيلة يرى الناس أعمالنا الصالحة ويمجدوا ابانا الذى فى السموات (متى ٥ : ١٦)

الأساقفة في تدوين الصلوات والتسابيح(١) والطقوس التي اصطلحوا عليها في أيامهم ، كما أضاف كل منهم إليها ما ارتآه من صلوات وأدعية ، لكي يستعملها القسوس . ومن ثم فالصلاة بعدما كانت ارتجالية فيما سلف في كل الكنائس ، أصبحت في كثير منها تتلى من كتب .

فثار الروحانيون مرة أخرى ضد هذا الانقلاب ، لأنهم وجدوا أن الصلوات ، أو بالحرى القداسات التي عملها هؤلاء الأساقفة ، قد طغت على عمل روح الله في المصلين ، وجعلت باقي المؤمنين مجرد متفرجين أو مستمعين، الأمر الذي أضعف حياتهم الروحية كثيراً . لكن لم يستجب لهؤلاء الروحانيين إلا القليلون ، وذلك لجهل الأغلبية الساحقة وقتئذ بكلمة الله .

غير أن القداسات المذكورة لم تكن طويلة مثل القداسات المعروفة الآن ، بل كانت أقصر مادة وأقل طقوسا . كما أن الكتب الخاصة بها لم تكن منتشرة بين المسيحيين عامة ، بل كانت محصورة في أيدي بعض الأساقفة والقسوس — ولعل هذا هو السبب في

---

(١) هذا مع العلم بأن القديسين القدماء كانوا ينهون نهياً باتاً عن الصلوات المكتوبة . فقد قالوا « والآن نترك لك مطلق الحرية لتصلي كيفما تريد . فقط حاول أن تكرس أوقات يقظتك وأن تسلم نفسك باتضاع لارادة الله ، طالباً المعونة » . وقالوا أيضاً « يجب أن لانقول في كل صلاة مانقوله في الاخرى ، وأن لانقول صلاة واحدة محفوظة في سائر الأوقات التي نجتمع فيها ، لان النفس تمل وتقلق من التكرار . لذلك يجب أن نغير الكلام حسب حاجة نفوسنا في كل ساعة . ونقول في كل وقت مايليق به من صلاة » (حياه الصلاة الارثوذكسية ص ٤٥٩/٦٠٧)

عدم وجود أثر كتابى لقداس مثل القداسات الحالية ، يرجع تاريخه إلى القرن الرابع أو الخامس .

٥ — وفى القرن السادس قام غريغوريوس الكبير بعمل لحن لكل صلاة تتلى عند إقامة العشاء الربانى ، كما أضاف إلى الطقوس السابقة طقوساً جديدة ، حتى بلغ عدد الطقوس فى كل قداس حوالى خمسين طقساً ، واقتضى الأمر وجود تفسير وشرح لكل منها(١) . وبذلك نشأ علم جديد فى الشرق والغرب فى أواخر القرن السادس ، غايته التعرف على أصل الطقوس والمعنى الذى يشير إليه كل منها . ويقول بعض المؤرخين أن غريغوريوس هذا ، هو الذى عمل « نظام القداس الحالى » ، ويقول بعض آخر إنه لم يعمل نظاما جديداً ، بل وسع ونسق النظام القديم . والرأى الأخير (كما اتضح لنا مما سلف) هو الصواب .

وقد انقسمت الكنائس وقتئذ فى موقفها إزاء هذا النظام إلى

(١) وقد اشار كتاب الخريدة النفيسة للارثوذكس إلى هذه الحقيقة فقال « إن الاسقف يعقوب الرهاوى عمل شرحاً للقداس فى القرن السابع ، وعمل مثل هذا الشرح البطريرك قرياقص فى القرن الثامن ، والاسقف اوريونا سيدس فى القرن الثانى عشر (ج ٢ ص ٨٧ و ١٧٨ و ٣٦٩) — والقيام بعمل شرح للقداس ابتداء من القرن السابع ، دليل على ان القداسات بوضعها الحالى عملت فى القرن السادس تقريبا ، إذ لا يعقل أن تكون القداسات عملت فى القرون الثلاثة الأولى (مثلا)، ولم يتحرك أحد لتفسير طقوسها إلا فى القرن السابع — ولا غرابة فى ذلك ؛ فالأنجيل مع وضوحه وعدم وجود أى صعوبة فيه، نهض كثيرون لتفسيره فى القرنين الثانى والثالث ، كما يتضح من تاريخ الكنيسة

فريقين : فريق أقبل عليه وسار على مقتضاه ، وفريق آخر رفضه وقاومه . لكن على ممر السنين أخذ كثيرون من الفريق الثانى يقبلون بتأثير المحاكاة والتقليد على النظام المذكور ويستعملونه مثل غيرهم . وهكذا أصبح القداس فى صلواته وطقوسه المتعددة هو العبادة الأساسية فى معظم الكنائس ، حتى إذا غاب الشخص المعين لأداء القداس ، أو فقد آلة من الآلات التى لا تتم الطقوس إلا بواسطتها (كالمبخرة مثلا) ، تعطلت الصلاة بأسرها . وقد أشار المؤرخون إلى هذه الحقيقة فقالوا « إن تعليم المسيح ضاع بين مختلف الطقوس والتقاليد ، وأصبحت المسيحية عند الأكثرين عبارة عن حركات وصلوات شكلية يشترك فى أدائها الصالحون والطالحون على السواء . وإذا أتمها واحد من أولئك أو هؤلاء ، اعتقد أنه حصل على الخلاص » (ضحى المسيحية ص ١٤) .

٦ — وفى الفترة الواقعة بين القرنين السابع والتاسع (أو بالحرى فى غضون الفترة المعروفة فى التاريخ بالعصور المظلمة) ، قام الأساقفة بتدوين القداسات التى وصلت إليهم فى كتب كثيرة ، لكى يستعملها كل القسوس فى كل الكنائس — ولعل تدوينها فى كتب كثيرة ابتداء من القرن السابع ، هو السبب فى عثورنا الآن على أثر كتابى لها يرجع تاريخه إلى هذا القرن ، كما يشهد المؤرخون على اختلاف طوائفهم .

٧ — وفى أثناء الفترة السابقة إلى القرن الرابع عشر ، أخذ

بعض الأساقفة يعملون قداسات جديدة . فقام يوحنا بطريرك أنطاكية بعمل قداس مطلعه « أيها الرب الإله الأزلي السرمدي الواجب الوجود » ، وأغناطيوس يوسف بطريرك أنطاكية أيضاً ، بعمل آخر مطلعه « أيها الإله المحتجب غير المدرك » ، كما قام يعقوب أوديوناسيوس بعمل ثلاث صور لرتبة القـداس ، فاتحة الأول « اللهم يا من يرتضي المحبة » ، والثاني « أعطنا حباً واتفاقاً وأمنا كاملاً » . والثالث « أيها الرب الإله الذى هو الحب الحقيقي » . و ... و ... و ... و ...

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ذهب بعضهم إلى تأليف قداسات على طراز لم يكن معروفاً من قبل . فقد عمـل شخص يدعى أغناطيوس بهنام قداساً مرتباً حسب الحروف الأبجدية ، وقد سبقه إلى هـذا النوع من القداسات توما الحرقلي وميخائيل الـكبير (الخريدة النفيسة ج ٢ ص ٣٦٩ ر ٣٩٧ ر ٤٢٢ ر ٤٥٠) ، الأمر الذى يدل على أن رجال الدين أخذوا ينصرفون وقتئذ عن العبادة الروحية إلى العبادة الشكلية .

٨ — كما أخذ بعض آخر من الأساقفة يضيفون إلى القداسات من تلقاء أنفسهم ، عبارات تدل على العقائد التي كانوا يتفقون عليها في أيامهم . لكن البعض الآخر منهم عندما أرادوا إضافة مثل هذه العبارات لجؤا إلى رفقائهم لـكي يستشيروهم ، خشية أن يتعرضوا للمقاومة والاضطهاد منهم . فأضاف الأسقف يعقوب ثلاث صلوات إحداها مبدوءة بالقول « هكذا تألم كلمة الله بالجسد » ، إلى قداس

يستعمله لغاية الآن السريان والأقباط على السواء. وقرياقص البطريرك عقد مجمعاً من الأساقفة لكى يقرروا سواء أكانوا يوافقون على الاستمرار فى تلاوة العبارة « إننا نكسر الخبز السماوى » الواردة فى القداس، أم يحذفونها[1]، فوافقوا على الاستمرار فى تلاوتها. أما غبريال الثانى فأضاف إلى القداس العبارة « وصيره (أى الناسوت) واحداً مع لاهوته »، دون أن يستشير أحداً. فقاومه الرهبان كثيراً، ولذلك أضاف إلى هذه العبارة القول « بدون اختلاط أو امتزاج أو استحالة ». وهكذا الحال من جهة يوحنا الخامس، فقد أضاف كلمة « المحيى » بعد العبارة « هذا هو الجسد »، التى تقال فى صلاة الاعتراف. لكن مكاريوس أسقف سمنود وقتئذ عارضه فى تصرفه هذا (الخريدة النفيسة ج ٢ ص ١٧٨ ر ٧٣٢ ر ٣٧٣)، الأمر الذى يدل على أن الأسقف المذكور، مع أنه عاش فى القرن الثانى عشر، لم يكن يعتقد بالاستحالة كما هى معروفة فى الوقت الحاضر.

٩ — وبعد ذلك أخذت تظهر من وقت إلى آخر آراء جديدة عن القداسات وفعاليتها، وبمجرد ظهور هذه الآراء كان كثيرون يصدّقونها. فلما ظهر الاعتقاد بأن الموتى يفيدون من القداسات

---

(١) مما تجدر ملاحظته أن انعقاد مجمع لهذا الغرض فى القرن الثامن، الذى عاش فيه البطريرك المذكور، دليل على وجود شك لدى بعض المسيحيين من جهة الاستحالة لغاية هذا القرن

إذا قدمت من أجل نفوسهم ، انتشر استعمال القداسات بين المؤمنين بالاستحالة لأجل هذا الغرض . ولما ظهر الاعتقاد بأن الملاك ميخائيل يتلو القداس كل يوم اثنين أمام الله فى السماء ، اكتظت الكنائس التى يطلق عليها اسمه بالناس ، فى هـذا اليوم من كل أسبوع .

وبالاضافة إلى ذلك أخذ كثير من رجال الدين يتلون القداس فى كل يوم ، لغرض خاص . ففى يوم الأحد ، لأجل الكهنة والشمامسة . وفى يوم الاثنين ، لأجل الغائبين والملائكة . وفى يوم الثلاثاء ، لأجل رفع خطية العالم . وفى يوم الأربعاء ، لأجل تمجيد العذراء مريم . وفى يوم الخميس ، لأجل الأنبياء والرسل والآباء والعلماء . وفى يوم الجمعة لأجل الأحياء وراحة الموتى (موضوع القداس الإلهى بمجلة رسالة الكنيسة سنة ٩٦٧ و سنة ٩٦٨) .

فضلا عن ذلك ، فقد أخـذ بعض رجال الدين ينظرون إلى القداسات ليس فقط كصلاة يقومون بتلاوتها لأجل إجراء الاستحالة التى قالوا عنها ، ولأجل الأغراض التى ذكرناها فى البند السابق ، بل وأيضاً كنوع من أنواع النذور . فقالوا إنه يمكن للناس أن ينذروا لله الاستماع إلى القداسات عدداً خاصاً من المرات ، إذا قضى لهم حاجة يطلبونها منه . ولكى يشجعوا الناس على استخدام القداسات أداة للنذر ، أفتوهم بأنهم حتى إذا وقفوا خارج الكنيسة واستطاعوا أن يميزوا أجزاء القداس ، فقد وفوا بالنذر الذى نذروه (مختصر اللاهوت الادبى للكاثوليك ج ١ ص ٢١١ — ٢١٨) .

٦

الطقوس العامة للقداسات، وأوجه الاتفاق والاختلاف بينها[1]

اولا — الطقوس العامة للقداسات

عرفنا فيما سلف أن القداسات نشأت فى أواخر القرن الثالث، وأن كثيرين قاموا بتأليف قداسات فى القرن الرابع والقرون التالية له. ولذلك بلغ عدد القداسات التى ظهرت لغاية القرن الرابع عشر (كما يقول المؤرخون) أكثر من مائة قداس، يحمل بعضها أسماء شهداء وقديسين عاشوا فى القرون الثلاثة الأولى، ويحمل البعض الآخر أسماء الأشخاص الذين ألفوها، أو ألفوا جزءاً منها بعد هذه القرون. غير أن هذه القداسات مع كثرتها ووجود بعض الاختلاف بين بعضها والبعض الآخر، يمكن حصرها من جهة نوع الطقوس الخاصة بها فى عشرة مجموعات، كما يتضح مما يلى:

---

(١) عن كلمات: "Liturgy" و"Prayer"، "Worship" فى دوائر المعارف الآتيه (ا) Ency. Britan. (ب) Ency. of Religion & Ethics (جـ) The New Schaff Herzog Ency.، وعن المرجعين الآتيين أيضاً (ا) Christian Worship, By Mikklen (ب) Liturgies of the Primitive Church, By Wooley

١ – الطقس السورى : وهو الخاص بالقداسين المنسوبين إلى يعقوب الرســول واكليمنضس أسقف روما فى القرن الأول ، وهذان القداســان كانا يستعملان فى سوريا وأنطاكية ولبنان وأورشليم منذ القرن الرابع أو الخامس .

٢ – الطقس البيزنطى(١): وهو الخاص بالقداسات المنسوبة إلى كريسوستوم وباسليوس ويوحنا ذهبي الفم وغريغوريوس ، والقداس اليونانى المنسوب إلى بطرس الرسول(٢) . والخاص أيضاً بالقداسات الأرمنية العشرة والقداس المنسوب إلى أثناسيوس الرسولى – والقداسات المذكورة كانت مستعملة فى روســيا وأرمينيا واليونان وغيرها من البــلدان ، منذ القرن الرابع أو الخامس أيضاً .

٣ – الطقس المصرى أو المرقسى : وهو الخاص بالقداس الكيرلسى وقداسى باسليوس وغريغوريوس النزيزى ، وقداسات الكنيسة الحبشية، لاسيما القداس المنسوب إلى الرسل جميعاً . وكانت مستعملة منذ القرن الرابع أو الخامس كذلك .

٤ – الطقس الفارسى : وهو الخاص بالقداسات المنسوبة إلى

---

(١) « بيزنطه » هو الاسم القديم الذى كان يطلق على الامبراطورية الرومانية الشرقيه، التى امتد حكمها من سنة ٣٩٥ الى سنة ١٤٥٣ م ، وكانت عاصمتها القسطنطينية . واشهر مبانى هذه المدينة كنيسة « اجياصوفيا » التى تحولت بعد الفتح العربى الى مسجد ، ثم الى متحف وطنى فى العصر الحديث

(٢) هذا القداس كان مستعملا فى ايطاليا قبل القداس اللاتينى

ثيودوروس ونسطوريوس وأوديوس ونارسيس وبرسوم وديودوس ، التى كانت مستعملة فى إيران والعراق وسوريا . والخاص أيضاً بقداس المسيحيين الذين آمنوا فى الهند بواسطة توما الرسول . غير أن القداس الأخير قد صيغ فيما بعد على نمط قداس روما بواسطة الجزويت سنة ١٥٩٩ .

٥ — الطقس الفرنسى الأسبانى (Hispano Gallican) : — وهو الخاص بالقداس المنسوب إلى يوحنا الرسول ، الذى كان يستعمل فى آسيا الصغرى . والخاص بالقداسات اللاتينية التى كانت تستعمل فى أسبانيا وفرنسا وشمال إيطاليا وبريطانيا وأيرلندا ، وقد حل قداس روما محل هذه القداسات فى القرن التاسع.

٦ — الطقس الموزرابى (Mozrabic)(١) : وهو الخاص بالقداس الوطنى لأسبانيا الذى كان يستعمل فيها لغاية القرن الحادى عشر ، وكانت طقوسه تشبه طقوس القداسات الشرقية(٢) . لكن لما دخل قداس روما إلى اسبانيا ، قل استعمال القداس الأول شيئا

---

(١) هذه الكلمة مكونة من جزئين هما "Moors" أى سكان مراكش ، "Arab" أى عرب . وكان يراد بها عرب مراكش الذين استولوا على اسبانيا بقياده طارق بن زياد ، كما كان يراد بها مسيحيو اسبانيا الذين استعربوا وقتئذ — وقد أشار إلى هذا الطقس باسم « الشعائر المستعربة » الدكتور حسين مؤنس ، وذلك فى كتابه « فجر الاندلس » (ص ٤٩٧)

(٢) لعل السبب فى ذلك يرجع إلى زحف بعض المسيحيين من الشرق إلى اسبانيا ، بعد فتح طارق بن زياد لها سنة ٩٢٥ م

فشيئا حتى اندثر فى القرن السادس عشر ، أى بعد استقلال اسبانيا بفترة وجيزة(١) من الزمن .

٧ — الطقس الفرنسى (Gallican)(٢) — وهو الخاص بالقداس الوطنى لكنيسة فرنسا فى القرن الخامس ، وقد أبطله شارلمان فى القرن التاسع ونشر قداس روما عوضاً عنه .

٨ — الطقس الميلانى(٣) : وهو الخاص بالقداس المنتشر فى شمال إيطاليا،وهو مزيج من قداس روما والقداس الفرنسى الأسبانى. وقد حاول شارلمان أن يبطله وينشر قداس روما عوضاً عنه ، كما فعل بالقداس الفرنسى ، لكنه لم يستطع . وذلك لتمسك سكان شمال إيطاليا بقداسهم لاعتقادهم أنه عمل بواسطة برنابا رفيق بولس الرسول ، فى خدمة الانجيل .

٩ — الطقس الإيطالى : وهو الخاص بقداس روما اللاتينى ، الذى ينسب إلى بطرس الرسول ، ويرجع تاريخه إلى القرن السادس فحسب (ولا غرابة فى ذلك فان معظم مسيحيى روما كانوا فى أول الامر يونانيين ، ومن ثم كان قداسهم فى القرن الخامس يونانياً أو بيزنطياً ، كما ذكرنا فيما سلف) . وبتأثير كنيسة روما دخل

---

(١) حصلت اسبانيا على استقلالها سنة ١٤٩٢ م

(٢) كانت فرنسا تدعى قديماً بلاد الغال أو الجال ، ولايزال يطلق عليها هذا الاسم من ناحية اتصالها بالكنيسة الكاثوليكية

(٣) نسبه إلى ميلانو فى شمال ايطاليا

هذا القداس إلى انجلترا فى القرن السابع ، وإلى فرنسا فى القرن التاسع ، وإلى أسبانيا فى القرن الثانى عشر .

١٠ — الطقس الكلتى (Celtic)[1] — وهو الخاص بقداس انجلترا القديم ، وكان فى أول الأمر على النمط الشرقى(٢) تقريباً ، لكنه تشكل على نمط قداس روما فى القرن السابع ، لاعتناق بعض الانجليز للكثلكة .

ومما تجدر ملاحظته فى نهاية هذه الفقرة أنه ليس هناك قداس منسوب إلى بولس الرسول ، مع أنه أشهر الرسل وأكثرهم تضحية فى خدمة الانجيل . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه كان أكثرهم مقاومة للتقاليد والطقوس اليهودية ، وأشهرهم تنبيهاً إلي عدم وجود أى ذبيحة لمغفرة الخطايا بعد كفارة المسيح (عبرانيين ١٠ : ١٨) ، الأمر الذى لا يدع مجالا للاعتقاد بأن العشاء الربانى ذبيحة ، تتطلب فى القيام بها كهنة رسميون — ومن هذا يتضح لنا أن كتبة القداسات قد حوّلوا أنظارهم عن الوحى الإلهى وركضوا وراء العقائد التى كونوها لأنفسهم ، بحجة أنهم تسلموها من بطرس ويوحنا ويعقوب وإندراوس وغيرهم ، مع أن هؤلاء أبرياء من العقائد المذكورة كل البراءة .

---

(١) الشعب الكلتى هو أحد فروع الشعب الآرى — وهذا الشعب كما يقول بعض العلماء ، تكون من امتزاج اليونانيين بالهنود تنفيذاً لرغبة الاسكندر الأكبر ، الذى كان يهدف إلى توحيد العالم تحت رياسته . وقد زحف الشعب المذكور من الهند الى أوربا قبل الميلاد ببضع سنوات ، ويتمثل الآن فى شعوب أوربا ، ماعدا شعبي المجر وفنلندا

(٢) لعل السبب فى ذلك يرجع الى أن بعض المصريين (كما جاء فى كتاب تاريخ الأمه القبطية ص ٢٤١ و٢٤٢) قد نادوا بالانجيل فى القرنين الخامس والسادس

ثانيا ـ اوجه الاتفاق بين القداسات

(ا) من جهة الصلوات والمراسيم

إن القداسات الشرقية والغربية ، وإن اختلف بعضها عن البعض الآخر من بعض النواحى كما سيتضح فيما يلى ، غير أنها تتفق معاً فى الموضوعات الآتية :

١ ــ استعمال قبلة السلام التى تدعى القبلة المقدسة ، والصلاة التى تدعى صلاة الشكر .

٢ ــ الصلاة لأجل الكهنة ورؤساء الكهنة ، والملوك والرؤساء وثمار الأرض والماء والهواء ، والمتألمين والغائبين والمسافرين ، والأرامل والايتام ، والاحياء والاموات ، و . . . ، و . .

٣ ــ التشفع بالعذراء مريم والقديسين

٤ ــ تلاوة قانون الايمان والصلاة الربانية

٥ ــ استعمال العبارات التى فاه بها المسيح عند تأسيس العشاء الربانى ، مع إضافة بعض الألفاظ إليها .

٦ ــ قراءة فصول معينة من الانجيل والرسائل .

٧ ــ تصوير النواحى البارزة من حياة المسيح بحركات اصطلح عليها .

(ب) من جهة الأغراض التى تعمل لأجلها القداسات

نظراً لأن العشاء الربانى يصبح هو المسيح بعينه ، كما يعتقد المؤمنون بالاستحالة، فإن القداسات فى الشرق والغرب تعمل للحصول (كما يقال) على الفوائد الآتية :

١ — الفوائد الروحية : وهى غفران الخطايا ، والثبات فى المسيح ، والحصول على الحياة الابدية ، والنصرة على الشهوات الجسدية . وكذلك الصفح عن الموتى الذين لم يتوبوا فى حياتهم ، حتى يفتح الله أمامهم باب الفردوس .

٢ — الفوائد النفسيـــة : وهى إزالة الخوف والاضطراب والانزعاج عن النفوس المصابة بهذه العلل .

٣ — الفوائد الجسدية : وهى شفاء الأمراض البدنية وتقوية الأجساد الضعيفة لتستطيع القيام بأعمالها .

٤ — الفوائد الاجتماعية : وهى النجـاح فى الامتحانات ، والتوفيق فى الزواج ، وحل الأزمات والمشكلات الشخصية والعائلية والاجتماعية والمصلحية والقضائية .

لكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس يتضح لنا كما مر بنا (أولا) أن الصلاة التى ترفع لله عند ممارسة العشاء الربانى يجب أن تكون شكراً وشكراً فحسب . (ثانيا) أن الغرض من ممارسة هذا العشاء هو تذكر موت المسيح والإخبار بموته وانتظار مجيئه والاعتراف بوحدة المؤمنين الحقيقيين . (ثالثا) إن الحصول على الغفران والحياة الأبدية يكون بالتوبة والإيمان الحقيقى بالمسيح (أفسس ١ : ٧ ، أعمال ١٠ : ٤٣ ، ٢٦ : ١٨ ، كولوسى ٢ : ١٣ ، يوحنا ٣ : ١٦ ، ٦ : ٤) . (رابعا) إن النصرة على الخطية تكون بواسطة السهر والصلاة والسلوك بالروح فى كل حين (١ بطرس ٥ : ٨ ، غلاطية

٥ : ١٦ — ١٨) . (خامسا) إن الذين ينتقلون من هذا العالم دون توبة وإيمان حقيقي، لا مجال أمامهم للتمتع بالله في السماء على الاطلاق. لأن الوقت الحاضر هو الوقت الذي يمكن للنفوس أن تتهيأ بهذين العاملين، للتوافق مع الله في صفاته الأدبية السامية (أعمال ١٧ : ٣٠، ٢٦ : ٢٠) . (سادسا) إن الشفاء من الأمراض الجسدية يكون باستدعاء قسوس الكنيسة (أو شيوخها) للصلاة ، ودهن المرضى بزيت باسم الرب (يعقوب ٥ : ١٤ — ١٦)(١) . (سابعا) إن الخلاص من الأزمات المتنوعة يكون بالصوم والصلاة والاعتماد القلبي على الله (يعقوب ٥ : ١٣) .

ثالثا ـ اوجه الاختلاف بين القداسات

وإن اتفقت القداسات من بعض الوجوه كما ذكرنا ، غير أنها تختلف من البعض الآخر . وهذا الاختلاف يكاد يكون بسيطاً بين القداسات الشرقية وبعضها ، والقداسات الغربية وبعضها . لكنه كبير بين الشرقيـة والغربية منها ، لذلك نحصر حديثنا عن الاختلاف الأخير .

---

(١) مما تجدر الاشاره اليه ، أن الزيت الذي يدهن به المرضى ليس زيتاً مخصصاً لهذا العمل ، بل زيتاً عادياً . فقـد قال الرسول عن المريض : ويدهنوه « بزيت » ، وليس « بالزيت » . كما أن دهن المرضى بزيت ليس من التعاليم التي اتبعها المسيحية، بل كان من العادات المستعملة في اليهودية من قبل (لوقا ١٠: ٣٤). فضلا عن ذلك فان الرسول لايسند الشفاء إلى الزيت بل الى الصلاه ، فقد قال ان « صلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه ، وان كان قد فعل خطية تغفر له »

القداسات الغربيــة	القداسات الشرقية
ليست بها مثل هذه الصلاة الطويلة ، إذ أنها تبدأ غالبا بما يسمى « التقدمة » .	١ — توجد قبل بدء القداس صلاة طويلة تدعى باليونانية « بروأنافورا » أو بالحرى « السابقة للقداس » . وهذه الصلاة هى ما انتهت إليه الصلاة الصباحية التى كانت تستعمل عند اليهود المتنصرين فى أوائل اعتناقهم للمسيحية .
تحدث الاستحالة (كما يقال) بمجرد أن يذكر الكاهن قول المسيح لتلاميذه عن الخبز « هذا هو جسدى » ، وعن الخمر « هذا هو دمى » . ومن ثم ليست بها صلاة لاستدعاء الروح القدس للقيام بالاستحالة التى يقال عنها .	٢ — تحدث الاستحالة (كما يقال) عندما يستدعى الكاهن الروح القدس لكى يحل على الخبز والخمر .
تقع هذه القبلة بعد ما يسمى « تقديس الخبز والخمر » ، أو بالحرى قبل الاشتراك فيهما مباشرة .	٣ — تقع « القبلة المقدسة » قبل الصلاة المسماة « تقديس الخبز والخمر » .

القداسات الشرقية	القداسات الغربية
٤ — الصلاة طويلة وتشمل أموراً متعددة وطقوساً متنوعة	الصلاة مختصرة والطقوس قليلة، وتستغرق فى أدائها وقتاً أقصر مما تستغرقه القداسات الشرقية .
٥ — للشعب مجال كبير للاشتراك فى الصلاة مع الكاهن	ليس للشعب مثل هذا المجال .
٦ — الصلاة من أجل الموتى ترد فى الجزء الأخير من القداسات	ترد هذه الصلاة فى أوائل القداس الجاليكانى .
٧ — تستعمل فيها رغيف خبز مختمر [١] .	تستعمل فيها أقراص صغيرة رقيقة من الفطير (أو بالحرى الخبز الذى ليس به خمير) ، وتدعى بالإنجليزية "Wafers" ، حتى يأخذ كل مشترك قرصاً بمفرده .

(١) مما تجدر ملاحظته فى هذه المناسبة أنه لم يكن يؤكل مع خروف الفصح سوى الفطير ، أو بالحرى الخبز الذى لايوجد به خمير (خروج ١٢) ، ولذلك فإن الخبز الذى استعمله المسيح فى العشاء الربانى الذى نحن بصدده ، كان بالضرورة فطيراً. أما الاعتراض [بأن الوحى لم يقل عن المسيح إنه أخذ فطيراً بل أخذ خبزاً، ومن ثم يكون قد أخذ خبزاً لا فطيراً] ، فلا يجوز الاخذ به، لأن كلمة الخبز تطلق على الخبز والفطير معاً — ومع كل فنى ضوء العهد الجديد الذى نعيش فيه الآن، لامجال للاختلاف بين المسيحيين من جهة هذا الموضوع ، لأنه ليس عهد الرموز المادية ، بل عهد الحقائق الروحية

القداسات الشرقية	القداسات الغربية
٨ — يتناول الشعب من الخبز والخمر معاً .	يتناول الشعب من الأقراص المذكورة فقط ، أما الخمر فيتناولها الكاهن وحده .وذلك لسببين(الأول) إن هذه الأقراص(كما يقال)تتحول إلى جسد المسيح بكامله ، أى إلى لحمه ودمه معاً . ولذلك فالتناول منها يكون (كما يقال) تناولا من جسد المسيح ودمه معاً.(الثانى) إن رجال الدين يخشون أن تسقط من فم أحد المشتركين قطرة من « دم المسيح » الذى فى الكأس (كما يقال) فتداس بالأقدام(١) .

وهذا الاختلاف دليل على أن كتبة القداسات لم يعتمدوا على الوحى الإلهى، بل على آرائهم الخاصة .

(١) هذا الاعتقاد ليس قديماً ، بل يرجع تاريخه إلى مجمع كونستانس الذى عقد سنة ١٤١٥ م

٧

دراسة تاريخ القداسات المتداول في الوقت الحاضر عند بعض المسيحيين (١)

عرفنا مما سلف شيئاً عن نشأة القداسات والأدوار التى مرت بها ، وبقى علينا أن ندرس تاريخها المتداول فى الوقت الحاضر عند المسيحيين المتمسكين بها ، لنعرف مكانته من الصواب ، ولذلك نقول :

(ا) تاريخ القداسات المتداول فى الوقت الحاضر

ينقسم هؤلاء المسيحيون من جهة تاريخ القداسات لديهم إلى أربع فرق ، تختلف كل فرقة عن غيرها فى الرأى كل الاختلاف ، كما يتضح مما يلى :

(١) يقول المنتمون إلى الفريق الأول إن المسيح ، قبل صعوده إلى السماء ، علم الرسل صلاة القداس ، وسلمهم إياها

---

(١) هذا الفصل مقتبس من (ا) اللآلىء النفيسة فى شرح طقوس الكنيسة حـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٥ (ب) تفسير قداس الكنيسة الارثوذكسية ص ١٧ ـ ٢٨ (حـ) قانون الارثوذكسية ص ٨٦ ـ ٨٧ (د) اللاهوت النظرى حـ ٢ ص ١٧١ ـ ١٧٥ (هـ) شرح وتفسير القداس الالهى ص ١٣ ـ ٢٢ (و) موضوعات « القداس الالهى » بمجلة رسالة الكنيسة من سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٠

شفوياً فى إحدى مغارات جبل الزيتون . ولذلك يسمى القداس لديهم « القداس الإلهى » . ويقولون أيضاً إن الصلاة المذكورة كان لها نسق خاص يميزها عن غيرها من الصلوات ، وإن الرسل كانوا يحفظونها عن ظهر قلب . كما أن الروح القدس كان يذكرهم بها مع باقى أقوال المسيح ووصاياه ، بناء على قول المسيح الوارد فى (يوحنا ١٤ : ٢٦) .

ويقولون كذلك إن المسيح ، بعد صعوده إلى السماء ، ظهر لبولس الرسول وسلمه هذه الصلاة بصفة شخصية ، معتمدين فى ذلك على نقطتين (الأولى) إن الرسول المذكور قال لمؤمنى كورنثوس : « لأنى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً . أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها ، أخذ خبزاً وشكر فكسر ، وقال : « خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم . اصنعوا هذا لذكرى . . . » (١ كورنثوس ١١ : ٢٣ - ٢٥) . (الثانية) إنه قال أيضاً لهم « كما هو مكتوب : ما لم تر عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على بال إنسان، ما أعدّه الله للذين يحبونه » (١ كورنثوس ٢ : ٩) ، وهذه العبارة ليست واردة فى الإنجيل أو فى العهد القديم ، ومن ثم لا بد أن تكون (كما يقول المنتمون إلى الفريق الذى نحن بصدده) واردة فى القداس الذى علمه المسيح لتلاميذه شفوياً .

(٢) ويقول المنتمون إلى الفريق الثانى إن أول من صلى بالقداس بعد المسيح ، هو يعقوب الرسول . وإنه صلى به بالإلهام الروح القدس فى علية صهيون . ثم صلى به رسل المسيح جميعاً بعد

ذلك فى عيد العنصرة، أو حلول الروح القدس . لذلك يدعى يعقوب الرسول عند هذا الفريق « خادم الأسرار » . ولما سأله بعض الرسل عن المصدر الذى تلقى منه هذا القداس ، « أقسم أنه لم يزد أو ينقص ، عما سمعه من الرب » .

(٣) ويقول المنتمون إلى الفريق الثالث إن صلاة القداس عملها بعض الرسل ، وقد دعيت بالوحى « صلوات الرسل » ، ويشار إليها فى الكتاب المقدس « بالتسليم » أو « الترتيب » أو « التقليد » .

(٤) ويقول المنتمون إلى الفريق الرابع إن صلاة القداس عملها بعض الرسل والآباء فى الأجيال الأولى للمسيحية . فالقداس المعروف بالكيرلسى عمله (كما يقولون) مرقس البشير . ثم أضاف إليه بطاركة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية من بعده صلوات ، دعت الحاجة إليها فى أيامهم . ويستشهدون فى رأيهم هذا (كما يقولون) بما كتبه دكتور نيل ومالان ، وما كتبته دائرة المعارف البريطانيه، والأنبا اغناطيوس افرام الثانى .

أما السبب فى تسمية هذا القداس بالكيرلسى لديهم ، فيرجع إلى أن البطريرك كيرلس الأول (الذى عاش فى القرن الخامس) هو الذى أكمله ورتبه (كما تقول جماعة من هذا الفريق) ، أو إلى أنه هو الذى يطلق عليه « عمود الدين » بسبب قضائه على بدعة نسطوريوس (كما تقول جماعة ثانية منه) ، أو إلى أنه هو الذى دوّن القداس فى كتاب (كما تقول جماعة ثالثة) .

لكن وإن اختلف القائلون بهذا التاريخ بشأن مصدر القداس ، غير أنهم أجمعوا على الأمور الثلاثة الآتية :

(الأول) إن المسيحيين الذين عاشوا فى القرون الأولى ، لم يتركوا أثراً يدل على نوع الصلوات التى كانوا يتلونها ، أو الطقوس التى كانوا يستعملونها عند القيام بالعشاء الربانى . لأن السلف (كما يقولون) كان يسلمها للخلف شفوياً إلى القرن الرابع أو الخامس .

(الثانى) إن أقدم أثر كتابى يدل على وجود القداس ، يرجع إلى القرن السابع للميلاد ، أى بعد ستمائة سنة تقريباً من انتقال الرسل جميعاً إلى السماء .

(الثالث) إنه لا يوجد فى الوقت الحاضر قداس واحد ، بل يوجد ثمانون قداساً : للحبشة منها سبعة عشر قداساً . وأهم هذه القداسات هى: قداس المسيح، وقداس العذراء مريم، وقداس الرسل جميعاً ، وقداس اثناسيوس الرسولى ، وقداس الـ ٣١٨ أباً الذين كان يتكون منهم مجمع نيقية فى القرن الرابع .

(ب) دراسة التاريخ السابق فى ضوء الوحى والعقل

أولا — دراسه القول بتعليم المسيح القداس لرسله بعد قيامته ، فى مغارة بجبل الزيتون

١ — إن المسيح أقام العشاء الربانى قبل ذهابه إلى الصليب ، ولذلك لو كان يعمل عند القيام بهذا العشاء قداس له نسق خاص

(كما يقال) ، لكان المسيح قد عمله وقتئذ ، ولكان الرسل عرفوه وقتئذ أيضاً ، ولما كانت هناك حاجة تبعاً لذلك ، تدعو المسيح إلى عمله بعد قيامته من الأموات فى مكان ما .

٢ — كما أننا إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس ، نرى أن المسيح كان يعلم الرسل تارة فى الهيكل ، وتارة على الجبل ، وتارة فى بيت عنيا ، وتارة على بحر طبرية ، وتارة فى الحقول ، وغير ذلك من الأماكن العامة . لكنه لم يعلم أحداً يوماً ما فى مغارة يحيطها الغموض والإبهام[1] . فضلا عن ذلك ، فإننا إذا تأملنا الاصحاحات الخاصة بأقوال المسيح وأعماله ، من وقت قيامته إلى صعوده ، لا نعثر على كلمة واحدة يستنتج منها أنه ذهب إلى مغارة ، أو علم الرسل صلاة ما .

٣ — وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإننا إذا وضعنا أمامنا أن الوحى الإلهى لم يهمل تسجيل « الصلاة الربانية » التى علمها المسيح للرسل ، بل سجلها فى الكتاب المقدس مرتين : الأولى فى (متى ٦) والثانية فى (لوقا ١١) . مع ان هذه الصلاة لا تحتوى إلا على بضع عبارات يمكن لجميع الناس حفظها عن ظهر قلب بكل سهولة ، اتضح لنا أنه لو كان المسيح قد عمل قداساً يتضمن

---

(١) فقد قال له المجد عندما سئل عن تعليمه : « أنا كلمت العالم علانية . أنا علمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً . وفى الخفاء لم اتكلم بشىء » (يوحنا ١٨ : ١٩ و ٢٠)

صلوات وطقوساً متعددة (كالقداسات المعروفة لدينا الان) ، لكان كل بشير قد سجله بالتفصيل فى الإنجيل الذى كتبه ، ولكان قد فعل ذلك أيضاً كل رسول فى رسائله ، لأن القداس يكون أهم من الصلاة الربانية وأولى منها بالتسجيل . وذلك لسببين (الأول) إنه يكون متضمناً لعبارات وطقوس متعددة، لا يمكن حفظها عن ظهر قاب أو تداولها شفوياً من جيل إلى جيل لمئات السنين ، دون أن تتعرض للزيادة أو النقصان . (الثانى) إنه يكون العامل (كما يقولون) فى حدوث الاستحالة التى تتوقف عليهما المغفرة والحياة الأبدية لديهم — وليس هناك شىء فى الوجود أهم من هذه وتلك على الإطلاق .

٤ — ولو فرضنا جدلا أن المسيح عمل قداساً مثل القداس السابق ذكره ، وأن الوحى لم يسجله أو يذكر شيئاً عنه فى الكتاب المقدس لسبب يخفى عنا جميعاً ، لما كان هناك واحد من المسيحيين مهما كان مقامه ، يجرؤ على عمل قداس غيره ، كما لم يجرؤ واحد منهم على عمل « صلاة ربانية » ، غير التى علمها المسيح للرسل . ولكان يوجد تبعاً لذلك لدى المسيحيين فى كل البلاد قداس واحد، كما أن لديهم صلاة ربانية واحدة . لكن عدد القداسات الموجودة الآن (كما يشهد المسيحيون الذين نحن بصددهم) قد بلغ ثمانين قداساً (والصواب مائة قداس تقريباً ، كما ذكرنا فيما سلف) . فضلا عن ذلك ، فإن هذه القداسات تختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً ليس بالقليل ، ومن ثم لا يعقل إطلاقا أن يكون المسيح

هو الذى عمل القداس كما يقولون .

٥ — أما الدعوى [إن الوحى لم يسجل القداس الذى علمه المسيح لرسله فى الإنجيل ، لأنه لم يسجل فيه كل شىء قام المسيح به . فقد قال يوحنا الرسول « وأشياء كثيرة صنعها يسوع ، إن كتبت واحدة واحدة ، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » (يوحنا ٢١ : ٢٥)] ، فلا يجوز الأخذ بها . إذ فضلا عن أنه لو كان المسيح هو الذى عمل القداس ، لما كان يجرؤ أحد على عمل قداس غيره كما ذكرنا فيما سلف ، فإن الأمور التى لم يسجلها الوحى فى الإنجيل(كما يتضح من يوحنا: ص٢٠: ١٣) ، هى بعض المعجزات التى صنعها المسيح . وذلك لأن ما سجله الوحى منها كاف للدلالة على أن المسيح هو ابن الله ، كما أعلن للناس بفمه الكريم من قبل — أما لو كان القداس قد عمل بواسطة المسيح ، لكان الوحى قد سجله بالتفصيل ، ليس فقط للسببين السابق ذكرهما فى (بند ٣) ، بل وأيضاً لأنه يكون أول عمل من نوعه قام له المجد به ، وعمل مثل هذا لم يكن يغفل عن ذكره أو الإشارة إليه بشير أو رسول .

٦ — كما أن الدعوى [إن قول بولس الرسول لأهل كورنثوس : « كما هو مكتوب : ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان، ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كورنثوس ٢ : ٩) لا يرد فى العهد القديم أو الإنجيل، ولذلك يكون وارداً فى

صلاة القداس التى علمها المسيح لتلاميذه شفوياً] ، لا يجوز الأخذ بها ، إذ فضلا عن الأدلة السابقة التى تنفى قيام المسيح بعمل قداس ما ، نقول : إن الرسل كانوا أحياناً يقتبسون فى رسائلهم آيات بنصها من العهد القديم أو الجديد ، وكانوا أحياناً أخرى يقتبسون المعنى العام لبعض الآيات الواردة فيهما . فمن النوع الثانى قول بولس الرسول « لذلك يقول (الكتاب) استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضىء لك المسيح » (أفسس ٥ : ١٤) . وقول يعقوب الرسول « أم تظنون أن الكتاب يقول باطلا : الروح الذى حل فينا يشتاق إلى الحسد » (يعقوب ٤ : ٥) ، فإن هاتين العبارتين لا تردان بنصهما فى العهد القديم أو الانجيل ، بل تعبران عن المعنى العام لبعض الايات الواردة فيهما . وهكذا الحال من جهة الآية الواردة فى الدعوى التى أمامنا — وإذا كان الأمر كذلك ، يكون كتبة القداس هم الذين اقتبسوا هذه الآية من أقوال بولس الرسول ، كما اقتبسوا غيرها من الايات من أقواله وأقوال غيره من الرسل ، وليس العكس .

ثانيا — دراسة القول بتسلم يعقوب الرسول القداس ، من المسيح

إن المسيحيين الذين نحن بصددهم يقولون (كما ذكرنا فى أوائل هذا الفصل) إن المسيح علم القداس للرسل ، وإن الرسل حفظوه عن ظهر قلب ، كما أن الروح القدس كان يذكرهم به من

وقت إلى آخر مع أقوال المسيح ووصاياه. فاذا كان الأمر كذلك، وكان القداس الذى صلى به يعقوب الرسول قد تلقاه (كما يقال) من المسيح نفسه ، فلماذا سأله الرسل عن المصدر الذى تلقى منه قداسه ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال لا تكون إلا بأحد أمرين :

(الأول) إما أن يكون الرسل قد فقدوا ذاكرتهم فجأة ، حتى أنهم نسوا فى بضع أيام كل شىء عن القداس الذى يقال إن المسيح علمهم إياه ، وأن يكون الروح القدس أيضاً قد تنحى عن القيام بمهمته الخاصة بتنبيه أذهانهم إلى ما قاله المسيح لهم ...

(الثانى) وإما أن يكون القداس الذى صلى به يعقوب الرسول مختلفاً عن القداس الذى يقال إن المسيح علمه للرسل ، وفى هذه الحالة يكون المسيح قد عمل قداسين مختلفين ، أو يكون يعقوب الرسول غير صادق فى قوله إنه تلقى قداسه من المسيح .

وبما أن هذين الأمرين يتعارضان كل التعارض مع الوحى والعقل معاً ، كما أن الرسول يعقوب لا يمكن أن يكون (كما يقال) قد أقسم عن « أنه لم يزد أو ينقص ، عما سمعه من الرب » ، لأنه مكتوب « لا تحلفوا البتة » (متى ٥ : ٣٤)] ، لذلك فإن الرأى الذى نحن بصدده ليس على شىء من الصواب . وليس هذا فحسب ، بل يكون أيضاً ملفقاً بواسطة أشخاص غير متأثرين بموعظة المسيح على الجبل ، التى ينهى فيها عن الحلف بأى شكل من الأشكال .

ثالثاً — دراسة القول بقيام بعض الرسل بعمل قداس دعى بالوحى « صلواتهم » ، واشير اليه « بالتسليم » او « الترتيب » او « التقليد »

١ — إن هذا الرأى يدل على عدم معرفة أصحابه بالحقيقة، وذلك للأسباب الاتية : (ا) لو كانوا يعرفون الحقيقة لذكروا لنا أسماء الرسل الذين عملوا القداس ، ولما اكتفوا بالقول العام إن بعض الرسل قد عملوه .

(ب) كما أن قولهم [إن الوحى أشار فى سفر الأعمال إلى القداس (الذى يقولون عنه) بأنه « صلوات الرسل »] ، ليس بصواب . لأننا إذا رجعنا إلى هذا السفر فى الأصل اليونانى ، وفى التراجم الأجنبية والعربية جميعاً ، نرى أن هـــذه العبارة ليست « صلوات الرسل » كما يقولون ، بل هى « الصلوات » فقط . فقد قال الوحى « وكانوا (أى المؤمنون) يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات » (أعمال الرسل ٢ : ٤٢) . ومن ثم يكون استادهم القداس إلى بعض الرسل ، لا يقوم على أساس، بل ويكونون أيضاً قد نقلوا خطأ كلمة من كلمات الكتاب المقدس، لكى يؤيدوا آراءهم الخاصة .

(حـ) فضلا عن ذلك ، فاننا إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس ، نرى أن الرسل مع تسجيلهم أعمال القسوس بالتفصيل فى (أعمال الرسل ٢٠، ١ تيموثاوس ٣ ، تيطس ١، ١ بطرس ٥) ، لم يذكروا مطلقاً أن من بين أعمال القسوس استعمال القداس ، أو حفظه عن ظهر

قلب ، أو ترتيله بنغمة خاصة ، أو إيقاد الشموع واطلاق البخور وارتداء ملابس خاصة عند تلاوته ، أو ... أو ... لذلك لا يمكن أن يكون الرسل هم الذين عملوا القداس ، لأنهم لو كانوا هم الذين عملوه ، لكانوا قد حرضوا القسوس فى هذه الاصحاحات على القيام بالأعمال التى ذكرناها ، لأنها تكون حينئذ أهم الأعمال لديهم .

(ى) أضف إلى ما تقدم أن أهل كورنثوس أساءوا مرة التصرف فى ممارسة العشاء الربانى ، إذ خلطوا بينه وبين ولائم المحبة التى كانوا يعملونها كما ذكرنا فى الفصل الثانى . ومن ثم كان الذين يتأخرون فى الحضور إلى هذه الولائم ، يحرمون من الاشتراك فى العشاء الربانى ، إذ يكون الذين سبقوهم قد تناولوه فى الولائم المذكورة (١ كورنثوس ١١ : ٢١) . ومع أن بولس الرسول وبخ أهل كورنثوس كثيراً لسوء تصرفهم هذا ، ونصحهم بوجوب انتظار بعضهم للبعض الاخر ، وبغير ذلك من النصائح الخاصة بهذا العشاء ، غير أنه لم يذكر كلمة واحدة عن شىء يدعى قداساً — وغنى عن البيان أنه لو كان هناك وقتئذ قداس له مراسم وطقوس خاصة (كما هى الحال فى الوقت الحاضر) ، لكان الرسول المذكور قد نصحهم فى مقدمة ما نصحهم به من أمور ، بوجوب الاتجاه باستمرار إلى الهيكل (إن كان لديهم هيكل) ، أو التأمل فى معانى الطقوس ومدلولاتها ، أوتلاوة نصيبهم فى القداس بخشوع وورع (إن كانت هناك طقوس ، وكان للشعب نصيب فى صلاة

القداس) ، أو لكان قد نصحهم على الاقل بعدم التناول من العشاء الربانى بأيديهم ، بل باستقباله بأفواههم من يد الكاهن (إذا كان هناك وقتئذ مثل هذا الشخص) ، أو بغير ذلك من النصائح التى ينبه إليها الذين يستعملون القداس ، فى كتبهم كثيراً .

(هـ) أما القول [إن نصيحة الرسول للمؤمنين فى كورنثوس بوجوب انتظار بعضهم للبعض الآخر ، كانت خاصة بولائم المحبة. ومن ثم ليس هناك دليل على أنهم كانوا يقومون بالعشاء الربانى ، بدون كاهن يناولهم إياه] ، فلا نصيب له من الصواب . لأن الرسول قال لأهل كورنثوس إن عدم انتظارهم هذا ، لا يليق بعشاء الرب (آية ٢٠) ، وإنه استهانة بكنيسة الله (آية ٢٢) ، ومن ثم يكون خاصاً بهذا العشاء ، وليس بولائم المحبة . وبناء عليه يكون أهل كورنثوس قد دأبوا على القيام بالعشاء الربانى بدون وجود كاهن بينهم. كما أن قيام بعض المؤمنين بالتناول من العشاء الربانى وحرمان البعض الاخر منه كما يتضح من(١ كورنثوس ١١: ٢١) ، دليل واضح على أن هذا العشاء لم يكن يعتبر فى العصر الرسولى ذبيحة لمغفرة الخطايا . لأنه لو كان كذلك ، لما كان يترك مطلقاً بين أيدى المؤمنين عامة لكى يتناولوا منه بأنفسهم ، بل كان يوضع بين يدى شخص مسئول (مثل الكاهن) كما ذكرنا فيما سلف ، لكى يناول بيده الراغبين فى الاشتراك ، كما هى الحال عند الذين يستعملون القداس .

وفيما يلى اعتراضات المتمسكين بالقداسات مصحوبة بالرد عليها :ـ

١ — [إن بولس الرسول قال لأهل كورنثوس « لأنى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً » (١ كورنثوس ١١ : ٢٣) ، وما تسلمه هذا الرسول من الرب هو النظام الذى يعمل به العشاء الربانى ، أو بالحرى هو القداس ، لأن هذا هو ما يسلم من واحد إلى آخر . إذ أن الفعلين «تسلمت» و« سلمتكم » الواردين فى هذه الآية، يدلان على أن هناك طقوساً خاصة تمارس عند القيام بالعشاء الربانى . إذ لولا ذلك لكان الرسول قد قال (مثلا) للكورنثوسيين: سمعت من الرب ما أخبرتكم به] .

الرد (ا) إن هذه الآية ، والآيات السابقة واللاحقة لها (١٠ : ١٥ — ٢٣ ، ١١ : ٢٦ — ٢٨) ، لا تدل على أن المسيح سلم الرسول المذكور قداساً ما ، بل تدل على أنه سلمه وصف ممارسة العشاء الربانى ذاته ، من حيث الشكر على الخبز ثم كسره وأكل كل واحد من المؤمنين جزءاً منه ، لتذكر جسد المسيح المبذول . وأيضامن حيث الشكر على الكأس ، ثم شرب كل واحد منهم بعضاً منه ، لتذكر دم المسيح المسفوك .

(ب) إن فعلى التسلم والتسليم (كما يتضح من الكتاب المقدس) يراد بهما قبول أى حقيقة عقائدية أو روحية ، ثم تبليغها بعد ذلك إلى آخرين . فقد قال هذا الرسول فى مواضع أخرى « فإنى سلمت إليكم فى الأول ما قبلته أنا أيضاً ، أن المسيح مات من أجل خطايانا » (١ كورنثوس ١٦ : ٣) . و « لأنكم إذ تسلمتم منا كلمة خبر من الله ، قبلتموها لا ككلمة أناس ، بل كما هى بالحقيقة

ككلمة الله » (١ تسالونيكى ٢ : ١٣) . و « نطلب إليكم فى الرب يسوع أنكم كما تسلمتم منا كيف يجب أن تسلكوا وترضوا الله ، تزدادون أيضاً » (١ تسالونيكى ٤ : ١) .

وبالرجوع إلى الأصحاحات المقتبسة منها هذه الآيات ، نرى أن التسليم فى الاية الأولى خاص بتبليغ المؤمنين حقيقة موت المسيح من أجل الخطايا . وأن التسلم فى الآية الثانية خاص بقبول كلمة الله بكل خضوع وخشوع ، بوصفها مقدمة لهم من الله نفسه . وأن التسلم فى الاية الثانية خاص بقبول وصية السلوك بالقداسة وإرضاء الله فى كل شىء — وكل من الخبر الخاص بموت المسيح، وقبول كلمة الله بوصفها صادرة منه مباشرة ، ومراعاة القداسة وإرضاء الله ، لا يتطلب منا ممارسة أى طقس من الطقوس .

٢ — [إن الرسول قال للمؤمنين « وأما الأمور الباقية ، فعندما أجىء أرتبها » (١ كورنثوس ١١ : ٣٤) . وقال لهم أيضاً « ليكن كل شىء بلياقة وبحسب ترتيب » (١ كورنثوس ١٤ : ٤٠) . وأيضاً « لكنى معكم فى الروح فرحاً وناظراً ترتيبكم ومتانة إيمانكم » (كولوسى ٢ : ٥) . وأيضا «انذروا الذين بلا ترتيب » (١ تسالونيكى ٥ : ١٤) . وقال لتيطس « تكمل ترتيب الأمور الناقصة » (١ : ٥) — وليس هناك شىء يستلزم ترتيباً سوى القداس . ومن ثم يكون الترتيب الذى أمر به الرسول ، خاصاً به].

الرد : لكى نعرف المعنى الحقيقى لآية ما ، يجب أن ندرسها مع القرينة ، لأنها هى التى تحدد معنى الاية ، وعلى هذا الأساس نقول :

(ا) ليس من المعقول أن تكون الأمور التى وعد الرسول بترتيبها فى الآية الأولى هى القداس ، لأنه على فرض وجوده وقتئذ لا يعقل أن الكورنثوسيين كانوا يصلون بقداس غير مرتب ، حتى الوقت الذى وعدهم الرسول بالعودة فيه إليهم . فإذا أضفنا إلى ذلك ، أن كلمة « أمور » بالجمع يراد بها أشياء كثيرة وليس شيئاً واحداً مثل القداس ، اتضح لنا أن الأمور التى وعد الرسول بترتيبها هى : إما المساعدات اللازمة للفقراء التى ورد ذكرها فى (٢ كورنثوس ٩) ، حتى يتم توزيعها بطريقة تمجد الله . أو العلاقات بين اصحاب المواهب وغيرهم التى ورد ذكرها فى (١ كورنثوس ١٢ر١٣ر١٤)،حتى لا يكون هناك نزاع بينهم فى شىء ما . أو غير ذلك من الأمور الإدارية التى كانت تتطلب وجود الرسول نفسه بين الكورنثوسيين ، لأنهم كانوا وقتئذ بكل أسف أطفالا فى الذهن (١ كورنثوس ١٤ : ٢٠) ، كما كان يتنازع بعضهم مع البعض الاخر لأتفه الأسباب (١ كورنثوس ١ : ١٠ — ١٥)

(ب) وإذا تأملنا الآية الثانية ، نرى أن الرسول كان يتحدث مع الكورنثوسيين قبلها عن ممارسة المواهب ، فقد قال لهم « إن كان أحد يتكلم بلسان ، فاثنين اثنين ، أو على الأكثر

ثلاثة ثلاثة ، وبترتيب . وليترجم واحد . لـكن إن لم يكن مترجم فليصمت فى الـكنيسة ، وليـكلم نفسه والله . وأما الأنبياء فليتكلم إثنان أو ثلاثة ، ويحكم الآخرون . لـكن إن أعلن لآخر جالس (أو بالحرى أعلن له بوحى من الله) (١) فليسكت الأول . . . لتصمت نساؤكم فى الـكنائس . . . ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن فى البيت . . » ، ومن ثم يكون المراد بالترتيب هنا ، ليس ترتيب القداس (إن كان هناك قداس ، وكان هذا القداس ينقصه الترتيب) ، بل وجوب مراعاة قصر المتكلمين فى الاجتماعات الدينية على اثنين أو ثلاثة ، وملاحظة عدم قيام أحد بالـكلام إذا كان هناك آخر يتكلم .

(حـ) وإذا تأملنا الآية الثالثة ، نرى أن الترتيب الذى رآه الرسول عند الـكولوسيين ، مقترن كل الاقتران بالمحبة . فقد كانوا يحبون بعضهم بعضاً (١ : ٤) ، والمحبة فى الواقع هى المنظم الإلهى لـكل الأعمال والتصرفات ، فحيث توجد محبة لا يوجد اضطراب ، بل كل ترتيب ونظام .

(د) وإذا تأملنا الآية الرابعة ، نرى أن الذين كانوا يسلـكون بلا ترتيب ، هم الذين كانوا يركنون إلى البطالة

---

(١) كان هذ الاعلان لازماً وقتئذ ، لأن الاناجيل ورسائل العهد الجديد (التى تحتوى على وحى الله) ، لم تكن قد كتبت بعد

والكسل . ويطالبون باقي المؤمنين بإمدادهم بما يحتاجون إليه من طعام وشراب باسم الأخوة المسيحية !! فقد قال الرسول لأهل تسالونيكي « لأننا نسمع أن قوماً يسلكون بينكم بلا ترتيب . لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون . فمثل هؤلاء نوصيهم ونعظهم بربنا يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز أنفسهم » (٢ — ٣ : ١١) ، لأن الحق الألهى هو أن من لا يشتغل ، مع توافر القدرة لديه على العمل ، يجب أن لا يعطى طعاماً ما (٢ تسالونيكى ٣ : ١٥) .

(ﻫ) وإذا تأملنا الاية الخامسة، يتضح لنا أن الأمور الناقصه التى طلب الرسول من تيطس تكميلها هى اقامة شيوخ أو أساقفة .

ومن ثم لا مجال لهذا الاعتراض أيضا .

٣ — [إن الكلمة المترجمة إلى العربية تعاليم فى (٢ تسالونيكى ٢ : ١٥ ، ٣ : ٦) تترجم تقاليد . وأهم التقاليد الكنسية هو القداس ، لأننا توارثناه عن الرسل على ممر مئات السنين ، ولذلك يكون هو المراد بكلمة « تقاليد » هذه] .

الرد : فضلا عن أن الرسل لم يعملوا قداسا ما كما اتضح لنا مما سلف، وفضلا عن أن كلمة التقاليد لا ترد فى الكتاب المقدس بمعنى صلوات موروثة ، بل بمعنى عادات مثل : وجوب غسل الأيدى قبل تناول الطعام. وجواز عدم تقديم مساعدة للوالدين إذا قدم ابنهما قربانا ، كما كانت الحال مع اليهود (متى ١٥ : ٢ — ٦) ، الأمر الذى لا يدع مجالا للدعوى التى أمامنا نقول :

إن الاية الأولى فى هذا الاعتراض، هى : « فاثبتوا إذا أيها الأخوة وتمسكوا بالتعاليم (أو التقاليد) التى تعلمتموها سواء كان بالكلام أم برسالتنا » . والآية الثانية هى : « ثم نوصيكم أيها

الاخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخ يسلك بلا ترتيب ، وليس حسب التعليم (أو التقليد) الذى أخذه منا » .

ومن هاتين الآيتين وما قبلهما وما بعدهما من آيات ، يتضح لنا أن التقاليد فى الآية الاولى يراد بها التصرفات المسيحية العملية التى تتفق مع الوحى الالهى ، لا سيما ما يتعلق منها بالقداسة والعفاف والطاعة الكاملة لله . وأن التعليم أو التقليد الوارد فى الآية الثانية يراد به وجوب قيام كل مسيحى بعمل خاص يحصل به على ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وعدم التجاء أحد إلى الكسل مستغلا عطف المؤمنين عليه ومساعدتهم له — ومن ثم لا مجال أيضاً للاعتراض الذى أمامنا .

٥ — [إن السبب فى عدم تسجيل الرسل للقداس فى رسائلهم ، يرجع إلى أنهم كانوا يمارسونه عملياً أمام المؤمنين . ومن ثم فإن عدم تسجيله ليس دليلا على عدم وجوده فى العصر الرسولى] .

الرد : ليست هناك آية واحدة فى الكتاب المقدس تدل على أن المسيح قام بعمل أى طقوس عند تأسيس العشاء الربانى ، أو أن الرسل قاموا بعمل مثل هذه الطقوس . فضلا عن ذلك فاننا إذا رجعنا إلى تاريخ الكنيسة لأى مؤلف من المؤلفين ، لا نعثر مطلقاً على أى عبارة يفهم منها أن المسيحيين كانت لديهم فى العصر الرسولى طقوس مثل التى نشاهدها فى القداسات الموجودة الان ، كما اتضح

لنا مما سلف ، لذلك فهذا الاعتراض ليس له نصيب من الصواب كذلك .

رابعا – دراسة القول بأن القداس عمل بواسطة الرسل والاباء فى الأجيال الأولى

١ — من المعلوم لدينا أن العمل الذى يسند إلى الرئيس بجانب إسناده إلى المرءوس، يكون المرءوس فى معظم الأحيان هو الذى قام به ، لكنه أسند إلى الرئيس بجانب إسناده إلى المرءوس لكى يكون لهذا العمل أهمية خاصة . لذلك فالقول إن القداس عمل بواسطة بعض الرسل والآباء ، يدل على أن هؤلاء الاباء هم الذين عملوه ، لكنه أسند إلى الرسل معهم لكى تكون له أهمية خاصة فى نظر الناس .

٢ — كما أن قول الذين يستعملون القداس إنه [عمل بواسطة الاباء فى الأجيال الأولى] دون تحديد ما ، مع ما نعلمه من حرصهم الشديد على إثبات قدم القداسات بأى وسيلة من الوسائل، دليل على أنه لم يعمل فى القرون الثلاثه الأولى بالذات ، لأن « الأجيال الأولى » بالجمع وبدون تحديد ، تشمل القرون الثلاثة الأولى ، كما تشمل ما بعدها من قرون حتى السادس والسابع (مثلا). ومن ثم فقولهم إن القداس عمل فى الأجيال الأولى بصفة عامة ، هو مجرد محاولة لمنع الشك من التسرب إلى اتباعهم ، من جهة قدم القداس ، كما يقولون لهم .

خامسا — دراسة القول بتسلم القداس من السلف شفويا، لغاية القرن الخامس

١ — لكى نعرف نصيب هذه الفقرة من الصواب نقول : إن أقوال القديسين الذين عاشوا فى القرون الخمسة الأولى، مثل (اكلنضس وديونسيوس وثاؤنا واثناسيوس وأوريجانوس وبطرس وذهبي الفم وكيرلس وديسقوروس) كانت تسجل كتابة فى أيامهم، كما يتضح مثلا، من (تاريخ الكنيسة ليوسابيوس ص ٤٨ وتاريخ الأمة القبطية ص ٧٢ — ٩٠) ، وقد وصلت إلينا معظم أقوالهم سالمة على الرغم من الأجيال العديدة التى تفصلنا عنهم . ومن ثم لو كان القداس بالوضع الذى عليه الان ، موجوداً فى الكنائس لغاية القرن الخامس، لما كان يسلم شفوياً من السلف إلى الخلف . بل كان يسجل فى كتب مثل أقوال هؤلاء القديسين ، بل وكان يسجل فى كتب أكثر من التى سجلت فيها أقوالهم، كما كان يسجل أيضاً بعناية أدق من العناية التى سجلت بها هذه الأقوال . وذلك لسببين : —

(الأول) إن عدد الذين يهتمون بالقداس يكون أكثر جداً من الذين يهتمون بأقوال القديسين المذكورين،لأن القداس (كما يعتقدون) هو العامل فى حدوث الاستحالة التى يترتب عليها الغفران والحياة الابدية عندهم — وهذان الموضوعان هما أهم الموضوعات على الإطلاق. (الثانى) إن القدماء لم يكن يخفى عنهم (كما لا يخفى عن غيرهم فى أى زمان ومكان) أن عدم تسجيل أى موضوع من الموضوعات ، يجعله معرضاً للزيادة والنقصان أو التحريف والنسيان.

وإنه إذا حدث أمر من هذه الامور فى القداس تبطل فعاليته (إن كانت له فعالية) ، ويصبح بلا فائدة أو جدوى . لذلك فالرأى الذى نفحصه لا نصيب له من الصواب أيضاً .

٢ ــ فاذا أضفنا إلى ما تقدم أن الكهنة على الرغم من حفظهم للقداس عن ظهر قلب فى مدارس خاصة ، وتلاوتهم إياه مرات متعددة بعد تخرجهم من هذه المدارس ، لا يزال ينسى كثيرون منهم بعض العبارات الواردة به ، عند استعمالهم إياه فى فرصة القيام بالعشاء الربانى ، ويرجعون تبعاً لذلك إلى الخولاجى لكى يتذكروا العبارات التى نسوها ــ اتضح لنا أنه ليس من المعقول إطلاقا أن القداس (إن كان له قديماً وجود فى الكنائس) ، كان يسلم من السلف إلى الخلف شفوياً زهاء خمسة قرون كما يقولون .

سادسا ــ دراسة القول برجوع اقدم اثر كتابى للقداسات ، الى القرن السابع

١ ــ إن رجوع أقدم أثر كتابى للقداسات الحاليه إلى القرن السابع (كما يشهد جميع المؤرخين ، ومن بينهم المؤمنون بالاستحالة) دليل على أنها سجلت بالوضع الموجودة عليه الان ، فى هذا القرن أو القرن السابق له على الأكثر . لأنه لا يعقل إطلاقا أنها كانت مسجلة كما هى عليه الان فى القرن الأول أو لغاية

القرون الخمسة الاولى ، ولا يوجد أثر كتابى لها يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن السابع كما يقولون — ولا غرابة فى ذلك فالعهد الجديد الذى كتب فى القرن الأول ، توجد منه فى الوقت الحاضر اجزاء ، يرجع تاريخها إلى القرنين الأول والثانى[1] .

٢ — أما الحقيقة التى يعلنها التاريخ ، فهى أن بذرة القداسات ظهرت فى النصف الأخير من القرن الثالث ، كما ذكرنا فيما سلف. وبناء على ذلك نقول (أولا) إن القداسات المنسوبة إلى أشخاص عاشوا فى القرنين الأول والثانى ، لا يمكن أن تكون قد عملت بواسطتهم ، بل أسندت إليهم بمجرد إسناد ، وذلك لتخليد ذكراهم أو إعطاء القداسات المذكورة أهميه خاصة . ومن ثم يكون مثل هذه القداسات مثل الكنائس التى تبنى فى الوقت الحاضر ، ويطلق عليها أسمـــاء قديسين وشهداء عاشوا فى القرون الأولى . ومما يثبت ذلك أن موسهيم ذكر فى تاريخه أن بعض الأشخاص كانوا يؤلفون كتباً ويضعون عليها أسماء العظماء والقديسين الذين عاشوا فى هذه القرون (تاريخه ص ٣٠٤) ، وقد وافقـــه على ذلك الأسقف ايسوذوروس الأرثوذكسى فى كتابه (الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ح ١ ص ٣٧) .

(ثانياً) إن القداسات المنسوبة إلى أشخاص عاشوا من منتصف القرن الثالث إلى الرابع ، من الجائز أن تكون عملت بواسطتهم ، أو

---

(١) تحدثنا عن هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب « انجيل برنابا — فى ضوء التاريخ والعقل والدين »

عمل بعضها بواسطتهم ، لكن الذين أتوا بعدهم أضافوا إليها الكثير من الصلوات والطقوس ، حتى بلغت فى القرن السادس أو السابع ، الحالة التى هى عليها الآن .

سابعا – دراسة القول بوجود قداسات باسم المسيح والعذراء وغيرهما

١ — إن المسيح كما اتضح لنا مما سلف ، لم يعمل قداساً ما ، إذ كل ما فعله أنه شكر الله، عندما أسس العشاء الذى نحن بصدده. ولو فرضنا جدلا أنه عمل قداساً ، لكان هذا القداس يستعمل لدى جميع المسيحيين فى كل البلاد ، وليس لدى الأحباش وحدهم ، لأن المسيح هو رب الكل ومخلص الكل . ومن ثم لا جدال أن القداس الذى يحمل اسمه ، قد عمل بعد منتصف القرن الثالث كما ذكرنا . ولكى يتبوأ اسمى مكانة بين القداسات ، نسب إلى « المسيح » له المجد ! ! .

٢ — إن العذراء مريم لم تأخذ يوماً ما مركز المعلم للرسل أو غير الرسل ، لأن هذا المركز كان للروح القدس دون سواه (يوحنا ١٥ : ٢٦ ، ١ يوحنا ٢ : ٧) . ولو فرضنا جدلا أنها عملت قداساً، لكان هذا القداس يستعمل عند جميع المسيحيين،وليس عند الأحباش وحدهم ، وذلك لسببين (الأول) إن كل المسيحيين يجلون العذراء مريم ويكرمونها . (الثانى) إنها أيضاً لم تكن حبشية الجنس حتى لا يستعمل القداس المنسوب إليها إلا الأحباش وحدهم — ومن

ثم لا بد أن هذا القداس عمل بعد منتصف القرن الثالث كما ذكرنا ، ثم نسب إلى العذراء لتكون له أهمية خاصة ! ! .

٣ — إن رسل المسيح لم يجتمعوا مرة وعملوا قداساً ما، كما ذكرنا فيما سلف . ولو فرضنا جدلا أنهم عملوا قداساً، لكان قد أرفق برسائلهم ونشر معها فى كل العالم المسيحى ، ولأصبح قداسهم هو القداس الوحيد لدى كل المسيحيين فى كل البلاد ، وليس لدى الأحباش وحدهم، ومن ثم فالدعوى بأن الرسل عملوا قداساً لا نصيب لها من الصواب على الإطلاق .

٤ — ولو كان اثناسيوس الرسولى عمل القداس المنسوب إليه، لما استعمله الأحباش أو اليونان(١) وحدهم ، بل لاستعمله الأقباط الأرثوذكس قبل غيرهم من المسيحيين ، إذ فضلا عن أن اثناسيوس هذا كان واحداً منهم ، فقد بلغت شهرته كل الافاق بسبب دفاعه المجيد عن الحق المسيحى ، حتى رفعه كثيرون إلى مقام الرسل ، وأطلقوا عليه « اثناسيوس الرسولى » . وبما أن الأقباط الأرثوذكس لم يستعملوا فى اى عصر من العصور القداس المنسوب إليه ، فلا يعقل إطلاقا أن يكون قد عمل بواسطته ، بل لا بد أنه عمل بواسطة بعض الذين عاشوا على الأقل بعد القرن الرابع الذى عاش فيه أثناسيوس ، ثم نسبوه إليه لتكون له قيمة خاصة !!

٥ — كما أنه لو كان أعضاء مجمع نيقية عملوا قداساً ، لأصبح

(١) لأن الدولة البيزنطية القديمة كان لديها أيضاً قداس منسوب إلى اثناسيوس، كما ذكرنا فى الفصل السادس

هذا القداس منذ القرن الرابع الذى عقد فيه المجمع المذكور ، قداسا دولياً يستعمله كل المسيحيين فى كل الاقطار ، وليس الأحباش وحدهم ، لأن أعضاء مجمع نيقية كانوا يعتبرون أعظم رجال الدين فى جميع أنحاء العالم وقتئذ . وإذا كان ذلك كذلك، فلا بد أن القداس المنسوب إليهم ، عمل بواسطة بعض الذين عاشوا على الأقل بعد القرن الرابع الذى عقد فيه هذا المجمع ، ثم نسب إلى أعضائه لكى تكون له قيمة خاصة كذلك ! ! .

ثامنا ـ دراسة القول بأن القداس الكيرلسى عمل أصلا بواسطة مرقس البشير

١ ـــ ولو كان مرقس البشير هو الذى عمل القداس المسمى بالكيرلسى ، لما كان واحد من البطاركة أو غيرهم من رجال الدين قد أضاف عبارة واحدة من عندياته إليه (كما يقول الأرثوذكس) ، وذلك لسببين (الأول) إن هذا القداس يكون معمولا بالوحى الإلهى ، والوحى الإلهى فضلا عن أنه بصير بكل حاجات البشر فى كل العصور والظروف ، ولا يمكن أن يترك عملا من أعماله فى حاجة إلى تكملة من إنسان أو ملاك ، فإنه لا يجوز التعدى عليه بالزيادة أو الحذف على الاطلاق . (الثانى) لو كان مرقس البشير عمل قداساً ، لما أطلق عليه أحد المسيحيين اسم كيرلس البطريرك ، لأن مرقس البشير أفضل من كيرلس هذا لدى جمع المسيحيين ، وفى مقدمتهم الأقباط الأرثوذكس . إذ أن الأول إناء من أوانى الوحى المقدس اصطفاه الله لتدوين البشارة المعروفة باسمه ، كما أنه هو أول من قاد الأقباط للإيمان بالمسيح .

بينا كيرلس المذكور مهما كانت صفاته وأعماله ، لم يكن له شيء من هذين الامتيازين العظيمين — لذلك فمن المؤكد أن كيرلس هذا هو نفسه الذى عمل القداس الذى نحن بصدده، ثم أضاف إليه الذين أتوا بعده عبارات خاصة بالعقائد التى ظهرت فى أيامهم — ولكى تكون له أهمية خاصة ، نسبوه إلى مرقس البشير ! ! .

٢ — كما أننا لو فرضنا أن مرقس عمل القداس المسمى الكيرلسى لاعترضتنا ثلاث مشكلات : (الأولى) لو كان هذا القداس ناقصاً فى أول الأمر ، فلماذا لم يكمله ويرتبه اثناسيوس الرسولى ، الذى أتى قبل كيرلس بعشرات السنين . وقد كان أقدر منه على القيام بهذه المهمة ؟ (الثانية) هل من المعقول أن يبقى قداس مرقس ناقصا وبدون ترتيب زهاء ٤٠٠ سنة ، حتى أتى كيرلس فأكمله ورتبه ؟ (الثالثة) ولو كان كيرلس هو الذى أكمل هذا القداس ورتبه ، فهل كان مرقس البشير والمسيحيون الذين اتوا بعده لغاية أوائل القرن الخامس الذى ظهر فيه كيرلس المذكور ، يصلون بقداس ناقص أو غير مرتب ؟ .

فهل يستطيع الذين يستعملون القداسات أن يحلوا لنا هذه المشكلات ؟ وإن كانوا لا يستطيعون ، ألا يكون قولهم [إن القداس الذى نحن بصدده عمل بواسطة مرقس البشير] لا نصيب له من الصواب ؟ .

٣ — أما الدعوى [بأن قداس مرقس لم يكن ناقصا بل مختصراً ، وأن كيرلس أضاف إليه الكثير من الصلوات ، ولا خطيئة فى تصرفه هذا . لأن بولس الرسول قال فى (١ كورنثوس ٣ : ١٤) عن نفسه: « حسب نعمة الله المعطاة لى كبناء حكيم ، وضعت أساساً وآخر يبنى عليه] ، فلا يجوز الأخذ بها . إذ فضلا عن أنه ليس هناك دليل على أن مرقس عمل قداساً ، كما انضح لنا مما سلف ، وفضلا عن أن إضافة أى عبارة إلي أقوال رسول ما ، تعتبر استهانة بالوحى الإلهى وتعديا عليه ، الأمر الذى لا يجرؤ على القيام به أى مؤمن حقيقى ، فإن الاية الواردة فى الدعوى التى أمامنا ، لا علاقة لها بالصلاة الخاصة بالعشاء الربانى ، لأن الأساس الذى وضعه الرسول (كما يتضح من الايات السابقة واللاحقة لهذه الاية) ، هو المسيح (أو بالحرى الإيمان الحقيقى بشخصه) ، وأن البناء الذى يجب علينا أن نبنيه على هذا الأساس ، هو الاتيان بالنفوس إلى المسيح مدعمة بالتعليم الإلهى الصحيح لأجل مجد الله دون سواه(١) .

فقد قال الرسول بعد الاية المذكورة « ولكن إن كان أحد يبنى على هذا الأساس ذهبا ، فضة ، حجارة كريمة ، خشبا عشبا ، قشا ، فعمل كل واحد سيصير ظاهراً لأن اليوم سيبينه . والذى سيبينه اليوم الذى سنقف فيه أمام كرسى المسيح (٢ كورنثوس ٥ : ١٠)، حتى نعطى عنه جزاء ، ليس هو عدد العبارات

---

(١) وذلك بالمقابلة مع غرض المعلمين الكذبة الذين كانوا فى كورنثوس ، لأن هدفهم الوحيد من الكرازة بالانجيل ، كان الحصول على مجد لانفسهم

التى نكون قد أضفناها إلى قداس ما (على فرض وجود قداس للمسيح أو رسله ، وأن من حقنا إضافة ما نراه مناسباً من عبارات إليه) ، بل هو الخدمة الصحيحة التى نكون قد قمنا بها لأجل مجد الله وخير الناس كما ذكرنا .

تاسعا — دراسة اقوال المؤرخين عن القداس المنسوب الى مرقس البشير

مما تجدر الإشارة إليه ونحن فى مستهل الرد على هذه الفقرة ، أن أقوال بعض الأجانب أو الوطنيين من المؤرخين، يجب أن لا تتخذ حجة نبنى عليها إيماننا ، بل يجب أن نفحص أقوال كل من الفريقين فى ضوء الكتاب المقدس (إن كان لها أساس فيه) ، أو فى ضوء العقل بالاستعانة مع أقوال غيرهم من المؤرخين (إن لم يكن لها أساس فى هذا الكتاب) . فإذا كانت لا تتفق مع هذا أو ذاك ، يجب أن لا نعيرها التفاتاً ، ومع كل نقول :

أولا — إن دكتور نيل ومالان (اللذين يعتمد بعض المسيحيين على أقوالهما ، كما ذكرنا فى أوائل هذا الفصل) ، لا يقطعان برأى من جهة قيام مرقس البشير بعمل القداس الذى نحن بصدده ، كما يتضح مما يلى :

فقد قال نيل « إن أسلوب القداس (الكيرلسى) وترتيبه بوجه عام ينسبان بوجه التقريب إلى القديس مرقس نفسه وإلى خلفائه الثلاثة الأولين» . وقال مالان « إن الكنيسة المصرية تستعمل منذ القرون الأولى على ما يظهر ثلاثة قداسات (الكيرلسى والغريغورى والباسيلى)، وسواء أكانت هذه القداسات موضوعة أصلا، باللغة اليونانية أم لا،

فمن المحقق أنها كانت موجودة باللغة القبطية فى العصر اليونانى(١) »

وإزاء هاتين العبارتين نقول :

(١) إن العبارة المنسوبة إلى نيل لا تدل على أنه متأكد من أن القداس الكيرلسى قد عمل أصلا بواسطة مرقس البشير ، بل تدل على أنه يظن أن القداس المذكور عمل بواسطة مرقس والثلاثة الأساقفة الذين أتوا بعده — والظن فضلا عن أنه لا يجوز اتخاذه أساساً لحقيقة ما ، كما هو معلوم لدينا ، فإن قول نيل (حتى إذا كان صحيحاً) يدل على أن القداس الذى نحن بصدده لم يعمل بواسطة مرقس البشير نفسه ، وذلك لسببين (ا) لا يعقل أن يكون مرقس هذا قد عمل قداساً ناقصاً كما يقال . (ب) إن العمل الذى يسند إلى المرءوس بجانب إسناده إلى الرئيس ، يكون المرءوس هو الذى قام به ، وإنما أسند إلى الرئيس لتكون له أهمية خاصة .

(٢) أما من جهة عبارة مالان ، فنرى من الواجب أن نشير أولا إلى أن حكم اليونان لمصر ، انتهى قبل الميلاد بسنوات كثيرة وأعقبه حكم الرومان ، الذى امتد إلى القرن السابع بعد الميلاد . ومن ثم يكون مالان قصد بالعصر اليونانى الذى ذكره ، عصر الرومان — وذلك على فرض أن مالان كان متأثراً بالناحية الأدبيه لا التاريخية ، لأنه لا يجوز أن يطلق على عصر الرومان فى مصر عصر اليونان ، إلا من الناحية الأولى . ذلك لان اللغة اليونانية (كما يتضح من كتب التاريخ) كانت هى السائدة فى مصر إبان حكم الرومان (الذى دخلت فيه المسيحية إلى مصر) ، وظلت هى السائدة فيها حتى دخلها

(١) هاتان العبارتان منقولتان عن كتاب تفسير القداس : ص ٢٤)

العرب . إذ أن الرومان لم ينشروا لغتهم فى مصر بعد فتحهم إياها ، كما فعل اليونان من قبل — ولكى نعرف وجهة نظر مالان بخصوص القداسات، نقول :

(أ) بما أنه يقرن زمن استعمال القداس الكيرلسى (المنسوب إلى مرقس البشير، كما يقال) بزمن استعمال القداسين الباسيلى والغريغورى، لا يكون القداس الأول أقدم من القداسين الآخرين على الإطلاق .

(ب) وبما أن القداسين الآخرين عملا فى أواخر القرن الرابع(١)، ويعلن مالان أنهما مع القداس الكيرلسى كانا يستعملان منذ القرون الأولى بدون تحديد ، يكون مالان قصد بالقرون الأولى هذه ، الفترة التى تبدأ من أوخر من القرن الرابع (الذى عاش فيه كاتبا القداسين الباسيلى والغريغورى) وتمتد إلى القرون التالية له حتى الخامس أو السادس، مثلا .

(ج) وبما أن كيرلس المنسوب الى اسمه القداس الذى نحن بصدده ، عاش فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، يكون (بناء على قول مالان) هو الذى عمل هذا القداس ، وليس مرقس البشير . لأنه فضلا عن أن مالان لا يذكر اسم مرقس البشير على الاطلاق ، فإن كيرلس هو الذى كان معاصراً إلى حد ما ، لكاتبي القداسين الباسيلى والغريغورى .

(٣) أخيراً نقول إن كتاب « أقوال الآباء الذين عاشوا قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥ — The Writers of the Ante Nicene Fathers »

(١) فالقداس الباسيلى (كما نعلم) منسوب إلى باسليوس اسقف قيصرية لغاية سنة ٣٧٩ م ، والقداس الغريغورى منسوب إلى غريغوريوس اسقف القسطنطنية لغاية سنة ٣٨٩ م

الذى يعتبر أعظم المراجع وأصدقها لدى جميع العلماء ، سجل (فى المجلد الثامن: ص ٥٣٢ — ٥٣٤) أن نيل ذكر « إن القداسات لم تعمل بواسطة الرسل الذين تحمل أسماءهم ، بل عملت بعد فترة من ظهور الاعتقاد بالذبيحة المسيحية، التى هى العشاء الربانى » ، أو بالحرى عملت فى أواخر القرن الثالث(١) . وذكر آخر « أنها عملت بعد العصر الرسولى بمدة طويلة » . وذكر غيره « أنها لم تعمل قبل انعقاد مجمع نيقية »، أى قبل القرن الرابع. أما الذين ذكروا «أنها كانت موجودة قبل انعقاد هذا المجمع، فقد أجمعوا على أنه «أضيفت إليها صلوات كثيرة بعده » ، وهذا هو ما ذهبنا إليه فيما سلف .

ثانياً — إن قول دائرة المعارف البريطانية : [إن قداسات القديس مرقس الرسول تشمل القداسات القبطية للقديس كيرلس وباسليوس وغريغوريوس ، كما تشمل قداس الكنيسة الحبشية المعروف بقداس جميع الرسل ، وكذا ستة عشر قداساً فرعياً لهذه الكنيسة](٢) ، لا يفهم منه أن مرقس الرسول عمـــل كل هذه القداسات كما يبدو من أول وهلة ، لأنه لو كان قد عمل قداساً ما، لكان قد عمل قداساً واحداً لمصر والحبشة معاً . أما المراد بالقول المذكور (كما اتضح لنا من الفصل السادس) فهو أن قداسات مصر والحبشة معاً لها طقس واحد ، أسنده المؤرخون بصفة عامة إلى مرقس البشير ، أو بالحرى إلى الكنيسة المصرية التى أسسها(٣)

(١) اقرأ شيئاً عن تاريخ الاستحالة فى كتاب « العشاء الربانى »

(٢) نقلا عن كتاب تفسير القداس ص ٢٣

(٣) ومن البديهى أن يكون الأمر كذلك ، إذ فضلا عن أن فترة وجود مرقس البشير فى مصر كانت قصيرة ، وكان يقضيها بأسرها فى التجول فى ربوع مصر للكرازة بالانجيل ، كما يتضح من كتب تاريخ الكنيسة ، فإن الطقوس الدينية لم يكن لها وجود فى العبادة المسيحية فى القرن الأول على الاطلاق ، كما اتضح لنا فيما سلف

هذا البشير — وإذا كان ذلك كذلك ، أدركنا أن القداس المنسوب إلى اسم كيرلس قد عمل بواسطته ، كما أن القداسين المنسوبين إلى باسيليوس وغريغوريوس قد عملا بواسطتهما .

(ثالثا) إن الأنبا أغناطيوس افرام الثانى بطريرك السريان الأنطاكى قال : [لكنيسة الاسكندرية ليترجية خاصة بها ، غلب عليها منذ القديم اسم ليترجية مار مرقس . واستمر الأقباط فى جميع الأحوال وعلى توالى الزمان محافظين على ليترجية كنيستهم ، إلا أنهم آثروا أن يسموها باسم كيرلس (لاشتهاره فى دحض بدعة نسطور) ، وضموا بعض الصلوات إليها . . . وعندنا نبذة تدل على ذلك ، يتقادم عهدها إلى القرن السابع ، تشمل على مقدمة التقديس الملائكى(١)] .

وبالتأمل فى قول اغناطيوس هذا ، نرى أنه لا يثبت تاريخياً أن القداس المذكور عمل بواسطة مرقس البشير ، بل ينقل إلينا آراء الناس وأقوالهم فى القرن السابع ، أى بعد انتقال البشير المذكور إلى السماء بحوالى ٧٠٠ سنة ، ولذلك لا يجوز الاعتماد على قوله كحقيقة من الحقائق الثابتة .

فمن هذا الفصل والفصلين السابقين ، يتضح لنا أن القداسات الحالية لم تعمل بواسطة المسيح أو واحد من رسله الكرام ، بل عملت بواسطة أساقفة عاشوا ابتداء من القرن الرابع ، كما ذكرنا فى الفصلين الرابع والخامس .

---

(١) نقلا عن كتاب تفسير القداس (ص ٢٥ — ٢٨)

٨

محتويات بعض القداسات فى ضوء الكتاب المقدس

لا جدال أن القداسات تتضمن عبارات كثيرة طيبة ، خاصة بتقديم الحمد والشكر لله ، وتوسلات حارة لطلب الصفح والغفران والمساعدة فى كل ناحية من نواحى الحياة . كما تتضمن آيات من الكتاب المقدس خاصة بموضوعات متنوعة متعددة ، تدل على إلمام كاتبى القداسات بما جاء فيه ، كما تدل على تأثرهم بقداسة الله وأفضاله وشعورهم بالحاجة الماسة إليه فى كل وقت من الأوقات . ومع ذلك توجد فى بعض القداسات(١) عبارات ليس لها أساس فى الكتاب المقدس . ويتضح من تاريخ الكنيسة أن بعضها كتب بواسطتهم والبعض الاخر كتب بواسطة أشخاص أتوا بعدهم ، لتأييد عقائد دينية خاصة . ونظراً لأن الذين يستعملون القداسات يحرصون كل الحرص على التمسك بكل كلمة وردت فى الكتاب المقدس ، مثل غيرهم من المسيحيين الحقيقيين ، نسجل فيما يلى بعض العبارات المشار إليها ، مصحوبة بالمقارنة بينها وبين ما ورد فى هذا الكتاب بشأنها ، لكى تتضح لهم الحقيقة المرة .

---

(١) مثل الباسيلى والغريغورى

(١) العبارات الخاصة بخبز العشاء الرباني وخمره

٢ — جاء فى « الرشومات » أن المسيح [أخذ خبزاً وشكر وباركه وقدسه . وأعطاه لتلاميذه القديسين قائلا : « خذوا كلوا منه كلكم ، لأن هذا هو جسدى الذى يقسم عنكم وعن كثيرين يعطى لمغفرة الخطايا . وهكذا الكأس أيضاً ، وشكر وباركها وقدسها وذاق . وأعطاها لتلاميذه القديسين قائلا : خذوا اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد يسفك عنكم وعن كثيرين يعطى لمغفرة الخطايا] .

المقارنة : (أولا) إن الوحى لا يذكر أن المسيح شكر وبارك معاً ، قبل إعطاء تلاميذه كلا من الخبز والخمر (كما جاء فى هذه القداسات) ، بل ذكر فقط أن المسيح « شكر » أو « بارك » ، فقال متى البشير : « أخذ يسوع خبزاً وبارك . . . أخذ الكأس وشكر » (متى ٢٦ : ٢٦ — ٢٨) . وقال لوقا البشير عن المسيح : « أخذ خبزاً وشكر . وكذلك الكأس أيضاً ، أى أنه شكر أيضاً عندما أخذها (لوقا ٢٢ : ١٦ — ٢١) — ومن هاتين الايتين يتضح لنا أن كلمه « بارك » معناها « شكر » كما ذكرنا فى الفصل الأول . ومن ثم يكون كتبة هذه القداسات أو اتباعهم أضافوا من عندياتهم كلمه « بارك » بعد كلمة « شكر » ، بسبب اعتقادهم أن العشاء الربانى يحتوى على بركة ، وأن هذه البركة هى القدرة على منح الغفران والحياة الأبدية لمن يتناولون منــــه ،

كما يقال .

(ثانياً) إن الوحى لا يذكر أن المسيح قدّس الخبز والخمر عندما أعطاهما لتلاميذه (كما جاء فى هذه القداسات) ، بل إن كتبتها أو اتباعهم هم الذين أضافوا كلمة « قدّس » هذه من عندياتهم ، بسبب اعتقادهم أن التناول من العشاء الربانى هو الوسيلة للحصول على الغفران والحياة الأبدية كما ذكرنا ، لأن «التقديس» لديهم ليس هو التخصيص لعمل دينى كما ذكرنا فى الفصل الثانى ، بل هو بعث نعمة خاصة فى المادة ، لكى تنتقل إلى كل من يستعملها .

(ثالثاً) إن الوحى لا يذكر أن المسيح قسم الخبز (كما جاء فى هذه القداسات) ، بل ذكر أن المسيح كسره . وهناك فرق كبير بين الفعلين « قسم » و « كسر » من جهة المعنى واللفظ معاً . فمن جهة المعنى إن « تقسيم الخبز » يراد به تجزئته بطريقة تجعل كل واحد من المشتركين فيه، يأخذ قسطاً يكون كافياً فى ذاته. بينما « كسر الخبز» لا يراد به هذا المعنى . ومن جهة اللفظ ، فإن كلمة « كسر » تختلف فى كل اللغات عن كلمة « قسم » .

وإذا كان ذلك كذلك ، فالسبب الذى دعا كتبة هذه القداسات أو اتباعهم ، إلى استعمال الفعل « قسم » بدلا من الفعل « كسر » فى هذه المناسبة ؟ (الجواب) : الراجح أنهم فعلوا ذلك بسبب اعتقادهم أن كل جزء من خبز العشاء الربانى يتناوله أى مشترك

لديهم ، لا يكون جزءاً من المسيح كما اتفق ، بل يكون المسيح بكامله .

(رابعاً) إن المسيح لم يقل لتلاميذه عن خبز العشاء الربانى إنه يعطى لمغفرة الخطايا ، بل قال لهم « هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم » (لوقا ٢٢ : ١٩) . ولذلك فكتبة هذه القداسات أو اتباعهم أتوا بعبارة « يعطي لمغفرة الخطايا » ،بدلا من العبارة التى نطق بها المسيح ، بسبب اعتقادهم أن العشاء الربانى هو المسيح بعينه ، لأن المسيح وحده هو الذى بناء على بذل جسده، يغفر الخطايا .

(خامسا) إن الوحى لا يذكر أن المسيح ذاق من خمر العشاء الربانى ، بل إن كتبة القداسات المذكورة أو اتباعهم هم الذين أضافوا كلمة ذاق هذه من عندياتهم — ولكى يبرروا هذه الإضافة قالوا [إن المسيح ذاق الخمر قبل حدوث الاستحالة ، وانه لذلك لا يكون غرضه أن تغفر له خطية ما] ، لكن مع اعتقادنا الجازم بأن المسيح لم تكن له خطية على الإطلاق ، فان هذا القول لا يبرر كتبة القداسات المذكورة أو اتباعهم . لأنهم يقولون إن المسيح ذاق الخمر بعد أن باركها وقدسها، والاستحالة (إن كانت قد حدثت) تكون قد حدثت فى أثناء المباركة والتقديس (اللذين يقولون عنهما)، أو بعدها مباشرة .

وإذا كان ذلك كذلك ، فمن أين أتوا بكلمة « ذاق » هذه؟ (الجواب) الراجح أنهم اقتبسوها من حادثة تحويل الماء إلى خمر

فى بلدة قانا الجليل (يوحنا ٢ : ١ — ٢) لاعتقادهم أن خمر العشاء الربانى تتحول إلى دم المسيح ، كما تحول الماء المذكور إلى خمر فى هذه البلدة(١) . فقد ورد فى الحادثة المشار إليها « فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول إلى خمر » . . لكن فضلا عن أنه لا يحق لهم (كما لا يحق لغيرهم) أن يقتبسوا فى تعبيراتهم كلمة من موضع فى الكتاب المقدس ويحشروها فى موضع آخر ، فقد خانهم التوفيق فى اقتباسهم هذا ، لأنهم (أولا) لم يذكروا أن المسيح أكل من خبز العشاء الربانى ، حتى يكون قد ذاق من خمره . (ثانيا) إذا استبعدنا فكرة أن المسيح ذاق الخمر لكى تغفر له خطية ما (لاشمئزاز كل المسيحيين منها) فانه على فرض حدوث استحالة بعد الشكر ، لا يعقل أن يكون المسيح قد ذاق الخمر المذكورة ، لأنه لم يكن فى حاجة إلى التأكد من حدوث استحالة فى الخمر (إذا كانت قد حدثت استحالة فيها) ، حتى كان يذوقها ، لأنه لم يكن يشك فى نتيجة أى عمل من أعماله .

(سادسا) إن المسيح لم يقل عن الخمر التى كانت فى الكأس إنها تعطى لمغفرة الخطايا (كما جاء فى هذه القداسات) ، بل قال « هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » (متى ٢٦ : ٢٧) بدون كلمة يعطى هذه . ومن

---

(١) كما أنه ليس هناك مبرر لاعتقادهم هذا ، لأن تحول الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل ، كان تحولا محسوساً . لأن رئيس المتكأ أدرك أنها خمر بمجرد أن ذاقها . أما التحول الذى يقول هؤلاء المسيحيون بحدوثه فى الخبز والخمر فليس محسوساً ، الأمر الذى يدل على أنه ليس تحولا فعلياً بل اسمياً فقط

العبارة التى نطق بها المسيح ، يتضح لنا أن قوله « لمغفرة الخطايا » مرتبط بقوله « دمى الذى يسفك من أجل كثيرين » . ودم المسيح الذى سفك من أجل كثيرين ، ، هو دمه الذى كان يجرى فى جسمه وقتئذ ولم تكن الخمر الموجودة فى الكأس ، لأن هذه الخمر لم تسفك بل شربها التلاميذ ونزلت إلى جوفهم . فضلا عن ذلك ليس هناك مجال لتناول دم المسيح المادى بالفم تحت أى شكل من الأشكال ، إذ أن المسيح ليس طعاماً مادياً بل هو طعام روحى ، والطعام الروحى لا يؤخذ بالفم بل يستقبل بالذهن ومنه إلى أعماق النفس .

وإذا كان الأمر كذلك ، يكون كتبة القداسات المذكورة أو غيرهم أضافوا كلمة « يعطى » ، بعد قول المسيح عن الخمر التى كانت فى الكأس : « هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى » ، بسبب اعتقادهم أن هذه الخمر هى دم المسيح بعينه ، وأنه يعطى عن طريق الشرب بالفم لمغفرة الخطايا .

٢ — جاء فى « باب الرشومات » فى هذه القداسات ، أن المسيح قال لتلاميذه [إنهم كلما أكلوا من هذا الخبز وشربوا من هذه الكأس ، يخبرون بموته ويعترفون بقيامته] .

المقارنة : بالرجوع إلى الآيات الخاصة بتأسيس العشاء الربانى الواردة فى (متى ٢٦ ، مرقس ١٤ ، لوقا ٢٢ ، ١ كورنثوس ١١) ، يتضح لنا أن كتبة القداسات المذكورة أو غيرهم ، أضافوا إلى الأغراض التى ذكرها الكتاب المقدس عن العشاء الربانى ، غرضاً آخر هو

إعلان حقيقة قيامة المسيح من بين الأموات – وهذا التصرف فضلا عن أنه لا يحق لهم القيام به، لأنه يعتبر تعدياً بالزيادة على أقوال الوحي، فليس هناك ما يبرره. لأن المسيح عندما أعطى العشاء الرباني لتلاميذه، لم يكن قد مات بعد، وبالحرى لم يكن قد قام من بين الأموات، حتى يكون قد قال لهم إنهم بممارستهم لهذا العشاء يعترفون بقيامتـــه.

حقاً إنه من الواجب أن نضع أمامنا كل حين بصفة عامة (وفى أثناء ممارسة العشاء الربانى بصفة خاصة) أن المسيح الذى مات، قد قام من الأموات. لكن إسناد أى كلمة إلى عبارة نطق بها المسيح (فى أى مجال، ولأى غرض من الأغراض) يعتبر تحريفاً وانحرافاً عن أهدافه.

٣ – جاء فى « صلاة بعد الاستعداد » فى هذه القداسات [اعط يارب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا]. وجاء فى باب « صلاة القرابين » فى القداسات المذكورة [صلوا من أجل القرابين المقدسة وضحايانا].

المقارنة: إن الذين يستعملون هذه القداسات يعتقدون أن العشاء الربانى هو المسيح بعينه، كما يعتقدون أنه مقبول أمام الله كل القبول حتى لو كان الكهنة أشراراً. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم يتضرعون إلى الله ويطلبون من جميع المصلين فى كنائسهم أن يتضرعوا معهم إليه، لكى يكون العشاء الربانى (أو بالحرى المسيح

نفسه، كما يقولون) مقبولا أمام الله — فهل يوجد تناقض فى أى عقيدة، مثل التناقض الموجود فى عقيدة الاستحالة؟ وأليس هذا التناقض دليلا على شك القائلين بينهم وبين أنفسهم من جهتها؟ وألا يدل هذا الشك على أنهم يشهدون دون أن يقصدوا، بأن الاستحالة التى يقولون بها ليس لها نصيب من الصواب؟

٤ — جاء فى باب القسمة فى هذه القداسات [نسجد لجسدك المقدس، ودمك الكريم].

المقارنة: إن المسيح لم يأمر تلاميذه بالسجود لعشائه، ولا تلاميذه سجدوا له، أو أوصوا أحداً بهذا السجود، لذلك فالسجود لهذا العشاء ليس له أساس فى الكتاب المقدس على الاطلاق. أضف إلى ذلك. (أولا) أن الوحى أوصانا قائلا «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (متى ٤ : ١٠)، وأيضا «لا تصنع تمثالا منحوتاً ولا صورة ما، مما فى السماء من فوق ومما على الأرض من تحت ... لا تسجد لهن ولا تعبدهن» (خروج ٢٠ : ٤و٥). (ثانياً) إن العشاء الربانى مهما بلغت مكانته لدينا بصفته تذكارا لموت المسيح كما ذكرنا، لا يجوز السجود له. لأنه لا يتحول إلى ذات المسيح، كما ذكرنا.

بالتفصيل فى كتاب العشاء الربانى. ولذلك فان السجود لهذا العشاء لا يكون سجوداً لله على الاطلاق.

الاعتراضات والرد عليها

١ — [إن السجود للعشاء الربانى يجب أن ينظر إليه بنظرة

صوفيةروحية تسمو فوق ما يبدو أنه يتعارض مع العقل أو المنطق. ولذلك لا يجوز التساؤل بشأنه] .

الرد : ليس هناك أي دليل كتابي أو عقلي يثبت أن هذا العشاء يتحول إلى لاهوت المسيح وناسوته ، أو أنه من الواجب علينا تقديم السجود له كما ذكرنا . ومن ثم فان الصوفية التي يقول المؤمنون بالاستحالة عنها ، لا تكون صوفية روحية بل صوفية وهمية ، نسجوها لأنفسهم بأنفسهم بسبب اعتقادهم بالاستحالة — وصوفية مثل هذه لا يقرها الله بحال .

فضلا عن ذلك فانه بالرجوع إلى تاريخ الكنيسة ، نرى أن السجود للعشاء الرباني لم يكن معروفا لغاية القرن الثاني عشر . وقد شهدت بهذه الحقيقة جمعية أبناء الكنيسة الارثوذكسية بإشارة عامة ، فذكرت في كتاب « القداس الباسيلي والغريغوري » المطبوع بواسطتها(في ص١١٧) أن القول « نسجد لجسدك المقدس ودمك الكريم » هو حسب بعض النسخ الحديثة . والنسخ الحديثة هذه ، وان كانت الجمعية المذكورة لم تذكر لنا شيئا عن تاريخها ، لكن بالرجوع إلى تاريخ الكنيسة يتضح لنا أن الاعتقاد بتحول العشاء الرباني إلى لاهوت المسيح وناسوته ، وبوجوب السجود له تبعاً لذلك ، لم يظهر إلا بعد المجمع اللاتراني الرابع في القرن الثالث عشر ، هذا القرن الذي كان يحرم فيه معظم رجال الدين على اتباعهم قراءة الكتاب المقدس ، ويطالبونهم بقراءة الكتب التي كانوا يضعونها لهم دون غيرها .

٢ — [إن السجود لا يقدم للعشاء الرباني في ذاته ، بل للمسيح الذي يمثله هذا العشاء مصلوباً لأجلنا]

الرد : إن كان هذا القول لا غبار عليه من الناحية الكتابية ، لكن إذا كان القائلون به يقصدون بكل كلمة فيه معناها الحقيقي ، فلماذا لا يقولون: نسجد لك أيها المسيح الهنا ، بدلا من أن « نسجد لجسدك المقدس ودمك الكريم » ؟. ولماذا لا يعلنون أيضاً أن العشاء الرباني لا يتحول فعلا إلى لاهوت المسيح وناسوته ، بل يتحول معنوياً فقط إلى جسده ودمه كما يعلن الانجيليون ، لأن هؤلاء يعتقدون ، أن خبز العشاء الرباني وخمره ، يصبحان تذكارا أو رمزاً أو مثالا لجسد المسيح ودمه الأكرمين ؟ ! .

(ب) العبارات الخاصة بصلاة الموتى لأجل الاحياء ، والاحياء لأجل الموتى

جاء في صلاة الشكر الواردة في هذه القداسات [اطلبوا لكي يقبل الله سؤالات وطلبات قديسيه (الذين انتقلوا من العالم) منهم بالصلاح عنا في كل حين] . ثم جاء في هذه الصلاة أيضاً القول [تفضل يارب أن تذكر جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء . هؤلاء الذين بسؤالاتهم وطلباتهم إرحمنا كلنا أجمعين ، وانقذنا من أجل اسمك القدوس الذي دعي علينا] .

المقارنة : (أولا) إن القديسين (أو بالحرى المؤمنين الحقيقيين) عندما ينتقلون من هذا العالم ، يسكنون في الفردوس تحت تأثير الله

وحده ، وليس تحت تأثيره وتأثير ما يجرى فى الأرض معاً . ومن البديهى أن يكون الأمر كذلك ، لأنه لو ظلت لهم علاقة بالأرض وما يجرى فيها ، لكانوا يشاركون أقرباءهم وذويهم الموجودين عليها أحزانهم وضيقاتهم وآلامهم ، وبذلك لا تكون الفردوس فردوسا لهم — وقد شهد أتقياء الارثوذكس بهذه الحقيقة منذ القديم فقالوا « إن أرواح الطاهرين فى الأبدية لا تتصور هناك شيئا من الخلائق أو ترتبط بها ، لأن الله يكون لها هو الكل فى الكل » (حياة الصلاة الارثوذكسية ص ١٢٠) — ولا غرابة فى ذلك ، فمحبة الله وجلاله يسبيان النفوس تماما ، ومن ثم لا يمكن أن تفكر فى غيره على الاطلاق .

وقد أعطانا الوحى صورة مصغرة لهذه الحقيقة ، فأخبرنا أن بطرس الرسول عندما رأى شيئا من مجد المسيح على جبل التجلى ، نسى أولاده وذويه . ثم قال للمسيح « جيد يارب أن نكون ههنا »

ومن ثم فالقول [إن القديسين الذين انتقلوا إلى السماء يصلون لأجلنا] ليس له أساس كتابى ، بل هو من ابتكار الناس الذين لا يثقون أن لهم حياة أبدية ، حتى يكون لهم أمل فى التمتع بها بوسيلة ما !!

لكن هذا الأمل لا طائل تحته ، وذلك لسببين (الأول) إن صلوات القديسين الذين رقدوا (ان كانوا يصلون لأجل بعض الخطاة على الأرض) لا تفى مطالب عدالة الله من جهتهم حتى يحظى هؤلاء بالغفران . (الثانى) إنها لا تهبهم حياة روحية حتى يصبحوا أهلا للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية ، إذ أن العمل الأول يتوقف على كفارة المسيح ، والعمل الثانى على تأثير الروح القدس

فى نفوس الذين يتوبون عن خطاياهم ويؤمنون بالمسيح إيماناً حقيقياً .

(ثانياً) أما من جهة صلاة الاحياء لأجل الموتى ، فنقول :
(ا) إذا كان هؤلاء فيما سلف مؤمنين بالاسم فحسب ، فلا يمكن أن تعود الصلاة لأجلهم بفائدة ما لذات السببين السابق ذكرهما . لأن الوجود مع الله فى الأبدية ليس بركة نحصل عليها بغض النظر عن حالة نفوسنا فى العالم الحاضر ، بل إنه مرتبط بحالتها هذه كل الارتباط . فالأشخاص الذين لم يولدوا من الله ولادة روحية وهم على الأرض [أو بالحرى لم يحصلوا منه على طبيعته الأدبية ، وذلك بالتوبة والايمان الحقيقى (٢ بطرس ١ : ٣)] ، لا يمكن مطلقاً أن يتمتعوا بالوجود معه بعد انتقالهم إلى العالم الآخر. وقد عرف اتقياء الارثوذكس هذه الحقيقة فقالوا « مادمنا فى هذا العالم ، ومادام لدينا وقت للتوبة ، فلنتب عن الشر الذى ارتكبناه بالجسد حتى نخلص بالسيد الرب ، لأنه بعد خروجنا من هذا العالم لا يمكننا الاعتراف القلبى أو التوبة » (تاريخ الآباء فى القرون الثلاثة الأولى ص ١٨) .

(ب) أما إذا كان الموتى من المؤمنين الحقيقيين، وكانوا قد أخذوا فى زلة ما عندما كانوا على الأرض ، ثم اعترفوا بعد ذلك بها وتابوا عنها ، يكون الله قد غفرها لهم بناء على قول الوحى « ان اعترفنا بخطايانا ، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل

إثم » (١ يوحنا ١ : ٩) . وقوله إن من يقر بخطاياه ويتركها يرحم (أمثال ٢٨ : ١٣) . وإذا لم يكونوا قد اعترفوا بها أو تابوا عنها ، يكون الله قد أدبهم التأديب الكافى على الأرض لكى لا يدانوا مع العالم فيما بعد . فقد قال الوحى « لو كنا حكمنا على أنفسنا (أى اعترفنا بخطايانا وتبنا عنها) ، لما حكم علينا . لكن إذ قد حكم علينا ، نؤدب من الرب لكى لا ندان مع العالم » (١ كورنثوس ١١ : ٣١) . ومن ثم تكون صلاتنا من أجلهم لكى يرحمهم الله ، لا مجال لها ولا جدوى منها .

(ثالثا) فضلا عن ذلك فاننا إذا تأملنا عبارتى القداس اللتين نحن بصددهما ، نرى فيهما الكثير من التناقض . فالذى يتلوهما يتشفع تارة بالقديسين لدى الله ، وتارة أخرى يطلب من الله أن يقبل شفاعتهم من أجل نفسه ونفوس الذين معه . ثم يأخذ هو دور الوساطة فيتشفع إلى الله من أجل هؤلاء القديسين . وبعد ذلك يطلب من الله مباشرة أن يرحمه هو وإياهم من أجل اسمه القدوس . . وإزاء ذلك نتساءل :

إذا كان هذا الشخص يعتبر نفسه أقل شأناً من القديسين الذين انتقلوا إلى السماء ، فلماذا يطلب من الله أن يذكرهم فى ملكوته ، وأن يقبل الصلاة التى يرفعونها إليه ؟ وإذا كان يعرف أن اسم الله القدوس الذى دعى علينا فيه الكفاية لاستجابة صلاتنا من جهة أى أمر من الأمور ، فلماذا لا يعتمد على هذا الاسم الجليل دون سواه ؟

فهل لهذه الأسئلة إجابة مقنعة عند الذين يستعملون الصلاة السابقة؟ وإذا لم يكن لها مثل هذه الإجابة ، فطبعا لا يبقى بعد أى مبرر للتحول عن الرب الذى قال لنا « مهما سألتم من الآب باسمى فأنا أفعله لكم » (متى١٨: ٢٠) ، ثم الالتجاء بعد ذلك إلى أشخاص فارقونا ، لم يطلب الله منا مرة أن نتجه اليهم لكى يشفعوا لأجلنا امامه — فاذا أضفنا إلى ذلك أن هؤلاء الأشخاص لا يزالون بعد انتقالهم من العالم محدودين فى ذواتهم وإدراكهم وقدرتهم (لأن عدم المحدودية من هذه النواحى ، كما من النواحى الذاتية والأدبية الأخرى ، هى من خصائص الله دون سواه) اتضح لنا أنه حتى على فرض وجود علاقة لهم بنا ، لا يجوز الاتجاه اليهم أو الاعتماد عليهم فى أمر من الأمور .

أخيراً نقول إن قدامى الارثوذكس كانوا ، مثل غيرهم فى الطوائف الأخرى، يحرضون المؤمنين، مهما كانت أحوالهم ، على الالتجاء إلى الله وحده . فقد قالوا « إذا سألت شيئا من الآب السماوى فى ايمان باسم يسوع المسيح ، فانه فى أجل محبته لابن مسرته ، يعطيك. دون أن ينظر إلى استحقاقك او إلى خطاياك . بشرط أن يكون لك معه ثبوت وحب » (حياة الصلاة الارثوذكسية ص ٣٤١)— وهذا بناء على قول المسيح الكريم « إن ثبتم فى وثبت كلامى فيكم، تطلبون ما تريدون فيكون لكم » (يوحنا ١٥ : ٧)

الاعتراضات والرد عليها

١ — [إن شفاعة المسيح هى شفاعة كفارية ، أما شفاعة القديسين فهى شفاعة استغفارية] .

الرد : إن الكفارة مرتبطة بالغفران كل الارتباط . فليس هناك غفران إلا على أساس الكفارة، وليست هناك كفارة إلا ومعها الغفران : لذلك فإن الوحى لم يقل فقط عن المسيح إنه كفارة لخطايانا (١ يوحنا ٢ : ٢) ، بل قال أيضاً إن فيه لنا الفداء بدمه غفران (ليس خطية آدم وحدها ، بل كل) الخطايا (افسس ١ : ١٧)

٢ - [إن شفاعة المسيح خاصة بالأمور الروحية الأبدية ، أما شفاعة القديسين فخاصة بالأمور المادية الدنيوية]

الرد : إن الله الذى أحسن إلينا فى المسيح بالبركات الروحية التى لا حد لها ، لا يمكن أن يبخل علينا بما يرانا فى حاجة إليه من الأمور المادية ، التى هى أقل من هذه البركات قيمة وقدراً . فقد قال الوحى لنا عن الله « الذى لم يشفق على ابنه بل بذله من أجلنا أجمعين ، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شىء !! » (رومية ٨ : ٣٢) . ومن ثم فكل مؤمن يعرف الله حق المعرفة ، يجد فيه كل الكفاية سواء من جهة الأمور الروحية أو المادية. وليس هذا فقط ، بل يرى أيضاً أن الالتجاء إلى غير الله فى أمر من الأمور ، فضلا عن أنه لا يجدى عليه خيراً ، هو إهانة عظيمة لله لا يرضاها له هذا المؤمن بأى حال من الأحوال .

٣ - [إن التشفع بالقديسين ، كان موجوداً فى الكنيسة منذ القرن الثانى ، ومن ثم يكون من تعليم الرسل أنفسهم]

الرد: إننا لا نعتمد فى إيماننا إلا على ما جاء فى الكتاب المقدس لأنه

وحى الله نفسه. ومن ثم إذا كان هناك تعليم منسوب إلى الرسل لا يتفق مع ما جاء فى هذا الكتاب ، يكون منسوباً إليهم زوراً وبهتاناً . ومع كل نقول: إننا إذا رجعنا إلى القرن الثانى ، لا نجد واحداً من المؤمنين كان يتشفع بالقديسين . وكل ما نجده فى هذا القرن أن بعض الوعاظ كانوا فى عظاتهم يناجون الشهداء (الذين رحبوا بالموت من أجل المسيح) بالمديح والثناء ، وأيضاً بالابتهال ليبثوا روح الشجاعة والاقدام فى نفوس المؤمنين الذين على الأرض (كما يفعل تماماً رجال السياسة إزاء شهداء الحرب فى كل زمان ومكان) ، وذلك لكى يتشبه هؤلاء المؤمنون بهم وينسجوا على منوالهم. لكن لما قرأ الذين عاشوا فى القرن الثالث وما بعده هذه المناجاة ، ظنوا أن الوعاظ المذكورين كانوا يتشفعون بالقديسين، ومن ثم نادوا بأهمية التشفع بهم !!

(ح) بعض العبارات الواردة فى « قانون الايمان »

١ — [ونؤمن برب واحد يسوع المسيح المولود من الآب قبل كل الدهور . . . مساو للاب فى الجوهر]

المقارنة : مع تقديرنا القلبى الصادق لرجال الدين الأفاضل الذين وضعوا قانون الإيمان، وإعجابنا بنضالهم من أجل الحق الالهى، وتأثرنا البالغ بما كانوا عليه من تقوى وقداسة. غير اننا لا نأخذ أقوالهم كوحى لا يجوز مناقشته، لأنهم على أى حال بشر مثلنا ، والبشر مهما كانت مراكزهم الأدبية أو الدينية، غير معصومين من الخطأ ، ولذلك نقول:

(١) بالرجوع إلى الكتاب المقدس لا نجد آية واحدة تنص على أن المسيح من حيث كونه أقنوم الابن، مولود من الآب قبل كل الدهور ، بل أن كل الايات الواردة فيه تدل على أنه من هذه الناحية موجود مع الآب (وليس مولوداً منه) قبل كل الدهور. إذ أنه واحد مع الآب فى الأزلية، وواحد معه فيها ليس بمعنى ولادة النور من الشمس (كما يقال(١)) ، بل بمعنى وجوده بأقنوميته الخاصة معه ومع الروح القدس باللاهوت الواحد ، وذلك منذ الأزل الذى لا بدء له . فقد قال الوحى « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا فى البدء كان عند الله» (يوحنا ١ : ١ — ٢) — أما قول الله على لسان داود النبي للمسيح « أنا اليوم ولدتك» (مزمور ٢ : ٧) ، فلا يراد به ولادة فى الأزل بل ولادة فى الزمن (لأن اليوم الوارد ذكره فى هذه الآيه ، ليس من مميزات الأزل ، بل من مميزات الثانى .

كما أنه لا يراد بهذه الولادة ، المعنى الحرفى بل المجازى . والمعنى

---

(١) لأن القول بصدور الابن من الآب صدور النور من الشمس ، يسلب الابن أقنوميته الخاصة، كما يجعل الآب مركباً — والحال أن الابن وإن كان واحداً مع الآب والروح القدس فى اللاهوت ، غير أنه اقنوم قائم بذاته ، كما أن الله أو اللاهوت لا تركيب فيه بأى حال من الأحوال .

المجازى لها هو إظهار غير الظاهر ، او بالحرى إظهار المسيح للبشر ، بعد أن كان غير ظاهر لهم فى لاهوته الذى يفوق الادراك.

(ب) كما أن المسيح من حيث كونه ابن الله الأزلى ليس مساوياً للاب من جهة الجوهر (كما جاء فى القانون المذكور) ، بل إنه واحد مع الاب من هذه الجهة. إذ فضلا عن أن القول بمساواة الابن للاب فى الجوهر يؤدى إلى الاعتقاد بوجود الهين ، فان اللاهوت واحد لا ثانى له ، كما أنه لا يتجزء إلى أجزاء متساوية أو غير متساوية . ولذلك لا يمكن أن يكون اللاهوت موزعاً بين الاب والابن والروح القدس ، حتى يجوز القول إن الابن أو الروح القدس مساو للاب فى الجوهر ـ وقد بحثنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب « الله — ذاته ونوع وحدانيته » ، فليرجع إليه القارىء إذا أراد .

٢ — [نؤمن بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا]

المقارنة : إن التمتع بالغفران يتوقف أولا وأخيرا على كفارة المسيح ، لأنها هى التى وفت كل مطالب عدالة الله من نحونا ، فقد قال الرسول عن المسيح : «الذى لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته » (افسس ١ : ٧) . والسبيل للحصول على هذا الغفران ، هو التوبة والايمان الحقيقى . لأن التوبة علامة الانفصال عن أهواء العالم ، والايمان الحقيقى علامة الانصال بالله وقبول هباته

فى أعماق النفس . فمكتوب عن المسيح : « له يشهد جميع الانبياء أن كل من يؤمن به (إيماناً حقيقياً) ينال باسمه غفران الخطايا » (أعمال ١٠ : ٤٣) . ومكتوب :حتى ننال بالمسيح غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين (أعمال ٢٦ : ١٨) . ولكى لا ندع مجالا للشك أمام أحد من جهة هذا الموضوع، نذكر فيما يلى الايات التى يقال إنها تدل على أن الغفران هو بالمعمودية ، مصحوبة بالرد عليها .

(أولا) إن قول المسيح لنيقوديموس « إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يوحنا ٣ : ٧)، ليس خاصاً بالمعمودية المسيحية [لأن هذه لم تتأسس إلا بعد موت المسيح وقيامته (متى ٢٨ :١٩). وليس من المعقول إطلاقاً أن يكون المسيح قد أمر نيقوديموس بممارستها، أو وجه اللوم إليه على عدم معرفته بها (يوحنا ٣ : ١٠) ، وهو لم يكن قد أنبأه بعد بشىء عنها] ، إنما خاص بالولادة الروحيه من الله ، أو بالحرى الحصول منه على طبيعة جديدة متوافقة معه فى صفاته الأدبية السامية . وذلك بقوة الروح القدس نتيجة الايمان الحقيقى بالمسيح ، وفقاً لما جاء عنه فى كلمة الله الحية المرموز لها هنا بالماء، بسبب مشابهتها له من حيث التنقية (يوحنا ١٥ : ٣) . وقد أشار الوحى إلى هذه الحقيقة فى مواضع كثيرة فقال « كل من يؤمن (إيمانا حقيقيا) أن يسوع هو المسيح ، فقد ولد من الله » (١ يوحنا ٥ : ١) . وقال أيضا « مولودين ثانية لا من زرع يفنى ، بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد »

(١ بطرس ١: ١٣). وأيضا « شاء (الله) فولدنا بكلمة الحق » (يعقوب ١ : ١٨) . وأيضا « المولود من الروح هو روح » (يوحنا ٣: ٦)

(ثانيا) إن قول بطرس الرسول لليهود « توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا » (أعمال ٢: ٨)، مشروط الغفران فيه بالتوبة الحقيقية. ولا مجال لهذه التوبة إلا مع الايمان الحقيقي. والايمان الحقيقي المصحوب بالتوبة الحقيقية، هو السبيل للحصول على الغفران كما ذكرنا . وهكذا الحال من جهة قول حنانيا لشاول الطرسوسي « قم واعتمد واغسل خطاياك داعيا باسم الرب » (أعمال ٢٢: ٦) ، لأن شاول هذا كان قد تقابل مع الرب من قبل، وآمن به تائبا عن كل ما اقترفه من آثام في حقه له المجد (أعمال ٩: ١-١١)، وبذلك كان قد تمتع بالغفران — وما وجوب العماد بعد ذلك في هاتين الحالتين إلا لإشهار الايمان الذي كان في قلوب الذين آمنوا، حتى يمكن قبولهم في الكنيسة .

(ثالثا) إن قول بطرس الرسول « الذي مثاله (أي مثال الفلك) يخلصنا (الله) نحن الآن أي المعمودية (لا إزالة وسخ الجسد، بل سؤال ضمير صالح عن الله) بقيامة يسوع المسيح من الأموات » (١ بطرس ٣ : ١١)، لا يقصد به أن المعمودية تخلصنا أو تغسلنا من خطايانا — لأنها كما يقول الرسول، ليست إلا رمزاً لموت المسيح وقيامته مثلها في ذلك مثل الفلك، ولأنها أيضا لا تزيل إلا وسخ الجسد — أما الذي يخلصنا من خطايانا (كما يتضح لدى التأمل بتدقيق في هذه الآية)، فهو قيامة المسيح بعد موته الكفاري نيابة عنا . إذ مكتوب أنه أسلم من

أجل خطايانا وأقيم لاجل تبريرنا » (رومية ٤ : ٢٥) - وموت المسيح وقيامته (المرموز لهما بالنزول في المعمودية والصعود منها) ، هما جواب الله عن سؤال الضمير الصالح من جهة السبيل إلى الخلاص. والايمان الحقيقى بجواب الله هذا ، هو السبيل للحصول على الخلاص المذكور (أعمال ١٦: ٣١ ، رومية ١٠ : ٩) .

وبالاضافة إلى ذلك نقول : (ا) إن الاعتقاد بأن المعمودية تغفر الخطايا ينقل السبيل إلى غفرانها من عمل باطنى فى النفس قوامه التوبة والإيمان الحقيقى ، إلى عمل خارجى قوامه غسل الجسد بالماء فحسب - وهذا يتعارض مع أقوال الوحى كل التعارض .

(ب) إن العماد ليس شرطا بجانب الإيمان حتى يتوقف الخلاص عليهما معا ، بل إن العماد هو مجرد اشهار الايمان واعلانه . والدليل على ذلك أن اللص الذى آمن بالمسيح عندما كان معلقا على الصليب، نال الخلاص دون أن يعتمد. كما أن بولس الرسول لم يكن يعمد الذين يؤمنون ، بل كان يترك أمر عمادهم إلى غيره (١ كورنثوس ١٧:١)

(ح) ومما يثبت أن العماد بالماء ليس هو الولادة الجديدة من الروح، أن كثيرين من الذين يعتمدون ، أشخاص أشرار عصاة ، ولا مصير لهم إلا الهلاك الأبدى (أعمال ٨ : ٢٢) — ونظراً لأننا تحدثنا بالتفصيل عن هذا الموضوع فى كتاب « الخلاص بين

فى بلدة قانا الجليل (يوحنا ٢ : ١ — ٢) لاعتقادهم أن خمر العشاء الربانى تتحول إلى دم المسيح ، كما تحول الماء المذكور إلى خمر فى هذه البلدة(١) . فقد ورد فى الحادثة المشار إليها « فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول إلى خمر » . . لكن فضلا عن أنه لا يحق لهم (كما لا يحق لغيرهم) أن يقتبسوا فى تعبيراتهم كلمة من موضع فى الكتاب المقدس ويحشروها فى موضع آخر ، فقد خانهم التوفيق فى اقتباسهم هذا ، لأنهم (أولا) لم يذكروا أن المسيح أكل من خبز العشاء الربانى ، حتى يكون قد ذاق من خمره . (ثانيا) إذا استبعدنا فكرة أن المسيح ذاق الخمر لكى تغفر له خطية ما (لاشمئزاز كل المسيحيين منها) فانه على فرض حدوث استحالة بعد الشكر ، لا يعقل أن يكون المسيح قد ذاق الخمر المذكورة ، لأنه لم يكن فى حاجة إلى التأكد من حدوث استحالة فى الخمر (إذا كانت قد حدثت استحالة فيها) ، حتى كان يذوقها ، لأنه لم يكن يشك فى نتيجة أى عمل من أعماله .

(سادسا) إن المسيح لم يقل عن الخمر التى كانت فى الكأس إنها تعطى لمغفرة الخطايا (كما جاء فى هذه القداسات) ، بل قال « هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » (متى ٢٦ : ٢٧) بدون كلمة يعطى هذه . ومن

(١) كما أنه ليس هناك مبرر لاعتقادهم هذا ، لأن تحول الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل ، كان تحولا محسوساً . لأن رئيس المتكأ أدرك أنها خمر بمجرد أن ذاقها . أما التحول الذى يقول هؤلاء المسيحيون بحدوثه فى الخبز والخمر فليس محسوساً ، الأمر الذى يدل على أنه ليس تحولا فعلياً بل اسمياً فقط

ويرجع السبب في ذلك الى أن المسيح ، وان كان قد قدم نفسه كفارة بعد انتقال قديسي العهد القديم من هذا العالم ، لكن كفارته كانت معروفة لدى الله منذ الأزل . فقد قال الرسول للمؤمنين « افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من الآباء ، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح، معروفا سابقا قبل تأسيس العالم (١ بطرس١ : ١٩ — ٢٠). وبناء عليه يكون الله قد قبل هؤلاء الأتقياء في الفردوس على أساس دم المسيح المعروف لديه أزلا (والذى كان يرمز اليه قديما بدم الذبائح التى أمرهم بتقديمها عن نفوسهم) ، ومن ثم لا يكون هناك داع لأن ينزل المسيح بعد الصلب الى الجحيم لإنقاذ أحد ما ، لأن أشرار العهد القديم مثل أشرار العهد الجديد سيظلون في جهنم الأبد ، كما يتضح من (يهوذا : ٧ر١٥)

(ب) فضلا عن ذلك ، فان الوحى لم يدع أمامنا مجالا للظن بأن المسيح ذهب إلى الجحيم بعد موته على الصليب ، فقد أعلن أنه قال للص الذى آمن به ايمانا حقيقيا « اليوم تكون معى في الفردوس » (لوقا ٢٣ : ٤٣) . كما أعلن أنه خاطب الآب قائلا « يا أبتاه في يديك استودع روحى (لوقا ٢٣ : ٤٦) ، ومن ثم تكون روحه الإنسانية قد صعدت الى الاب ، أو بالحرى الى الفردوس بعد موته على الصليب مباشرة — ونظراً لأننا قد تحدثنا عن هذا الموضوع باسهاب في كتاب «الخلاص بين الوحى والمفاهيم البشرية» ، نكتفى بما ذكرناه .

(ح) أما اذا أخذنا عبارة « نزول المسيح الى الجحيم » بالمعنى المجازى ، فتكون صادقة الى حد كبير ، لأن المسيح احتمل على الصليب القصاص الذى كان يجب أن يحل بنا جميعا فى جهنم الى الأبد (٢ كورنثوس ٥ : ٢١ ، مزمور ٢٢ : ١—١٨، ٦٩ : ١—٢١) حتى تكون كفارته عنا كفارة قانونية ، وحتى لا يهلك كل من يؤمن به ايمانا حقيقيا بل تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣ : ١٦)- وفى هذه الحالة يكون المراد بالجحيم جهنم بعينها .

فهل بعد هذه المقارنات ، يمكن أن يقال إن القداسات عملت بإلهام الروح القدس ، وإنه لا يجوز إضافة كلمة إليها أو حذف أخرى منها ؟ !

٩

تطور الآراء من جهة القداسات في العصر الحديث

اولا - التطور لدى بعض الذين رفضوا الاستحالة (١)

رأينا في الفصل الخامس أن القداسات بلغت شأناً عظيماً عند معظم المسيحيين في القرن التاسع، وأخذت تتغلغل في نفوسهم وتستحوز عليها لغاية القرن الرابع عشر. غير أن هذه الحالة لم تستمر بعد هذا القرن طويلا. لأنه عند ما بزغ عصر النهضة، انطلقت كلمة الله التى كان قد أخفاها كثير من رجال الدين، وأخذت مجالها إلى نفوس المخلصين من المؤمنين، فأيقظت فيهم الوعى الروحى الذى كان خاملا فيهم فى العصور المظلمة. وفيما يلى خلاصة موقف هؤلاء المؤمنين إزاء القداسات ابتداء من عصر النهضة إلى الوقت الحاضر.

١ — ففى القرن الخامس عشر ثار بعضهم مثل يوحنا طولر وهنرى صوصو ضد الطقوس، لأنهم وجدوا أنها طغت على العبادة المسيحية فسلبتها العنصر الروحى الذى هو لبها وجوهرها، وجعلتها عبادة شكلية يؤديها معظم رجال الدين على سبيل العادة، دون أن تترك

---

(١) عن تاريخ الاصلاح لدوبنييه

أثراً طيبا فى نفوسهم أو نفوس الذين ينقادون وراءهم. ولذلك قاوموا استعمال القداسات مقاومة عنيفة ، وأقاموا لهم اجتماعات لدراسة الكتاب المقدس، وللعبادة الروحية تبعا لارشاد الروح القدس وهدايته، بعيداً عن الطقوس والمراسيم الدينية كل البعد .

٢ — وفى القرن السادس عشر طالب لوثر بابطال القداسات بالوضع الذى كانت عليه فى أيامه ، ونادى بأنه لاتوجد فى العهد الجديد الا ذبيحة واحدة ترفع الخطايا هى ذبيحه الصليب ، لأن بها احتمل المسيح قصاص خطايانا بأكمله . كما نادى بأن المسيح لم يعمل العشاء الربانى لنسجد أو نتعبد له ، بل ليكون واسطة نتغذى عن طريقها روحياً بشخصه. ثم عمل قداساً خاليا من الطقوس الواردة فى قداس روما ، وخالياً أيضاً من تقديم السجود لهذا العشاء. لكنه لم يفرض على اتباعه استعمال هذا القداس ، بل ترك لكل منهم الحرية فى استعمال الصلاة التى تعبر عما يجول فى نفسه من معان .

٣ — وفى هذا القرن أيضاً عمل كل من زونجلى وكلفن قداساً للكنائس المصلحة . ويتميز قداس كل منها بالبساطة التامة ، إذ كان يقوم فقط على الشكر والتعبد لله لأجل عمل الفداء الذى قام به المسيح على الصليب ، وما ترتب على هذا العمل من نتائج مباركة .

٤ — وبعد ذلك ثار كرلستاد ضد القداسات قائلا : «ليس هناك شىء أكثر ضرراً للنفوس من الاعتماد على الطقوس ، والاعتقاد بوجود قوة خفية فى الاسرار » . ثم نادى بالغاء القداسات

لتحويلها أنظار الناس عن العبادة الشخصية لله بالروح والحق ، إلى العبادة الروتينية الشكلية .

٥ — كما قام رجل يدعى أنطونيوس بولدى وخطف البرشانة(١) من يد الخورى (أى الكاهن) ، وصاح نحو المصلين قائلا « ليس هذا هو الإله الذى يجب أن تعبدوه » ، لأن الله موجود فى السماء ، وليس فى يد الخورى كما تعتقدون » . فاجتمع كثيرون حوله ، والغوا القداسات من كنائس وتمبرج وزيورخ وغيرها من الكنائس التى رفضت تعليم الاستحالة . كما أزالوا المذابح ووضعوا مكانها موائد عادية . وأخذوا يقدمون لله عند ممارسة العشاء الربانى ، تشكرات ارتجالية حسب إرشاد الروح القدس لهم . وبعد ذلك كانوا يشتركون معاً فى هذا العشاء لتذكر محبة المسيح الفادية — وذلك على النسق الذى رسمه المسيح ، وسار عليه الرسل من بعده .

٦ — ومع أن الذين رفضوا الاستحالة ، أجمعوا على أن صلاة الشكر تكون ارتجالية حسب إرشاد الروح القدس ، لكنهم انقسموا إلى قسمين من جهة من يقوم بها . فالقسم الأول حصر هذه الصلاة فى القسوس ، حتى لا يقوم بها مؤمنون بالاسم أو مؤمنون حقيقيون يكونون فى حالة الضعف أو الفتور الروحى ، فتضطرب العبادة بأسرها .

---

(١) هى إحدى الاقراص الصغيرة التى يستعملها اللاتين بدلا من رغيف الخبز ، فى ممارسة العشاء الربانى

أما القسم الثانى فنظراً لأنه حصر الاشتراك فى العشاء الربانى فى المؤمنين الحقيقيين المدققين فى سلوكهم، فقد فتح مجال العبادة أمامهم جميعاً، لأن كلا منهم يستطيع أداءها تبعاً لارشاد الروح القدس وهدايته. والقسم الأول يشمل كنائس الانجيليين ونهضة القداسة والرسوليين وغيرهم، والقسم الثانى يشمل كنائس الأخوة، ومن رأى رأيهم.

ثانيا — التطور لدى الذين يتمسكون بالاستحالة

أما الذين ظلوا على الإيمان بالاستحالة فقد انقسموا فى العصر الحاضر من جهة الطقوس إلى فريقين — فالفريق الأول، وهو الذى لا يزال يتمسك بأقوال بعض القدماء أكثر من أقوال الكتاب المقدس يقول: « إن الديانة إذا خلت من الطقوس والنظم، خلت من أصبع الله، ولم تعد مناسبة للعبادة »! وإنه يجب أن نحترم جميع مردات وألحان القداسات، فلا نزيد عليها أو ننقص منها أو نحرف أى لفظ فيها »!! (عن كتابى: لماذا أنا أرثوذكسى ص ٣٧، وقانون الأرثوذكسية ص ٨٧).

أما الفريق الثانى: وهو الذى يتمسك بأقوال الكتاب المقدس أكثر من أقوال القدماء، ويهتم بالحياة الروحية أكثر من المظاهر الدينية، فيقول: « إن الذين بلغوا هذه الدرجة من النقاوة، يكونون غير مفتقرين إلى ترتيب فى الخدمة ... لأنه بتحركات الروح القدس ترتفع عقولهم عن طقس الصلاة »، أو بالحرى نسقها الموروث. كما يقول هذا الفريق متسائلا « ماذا نفعل إزاء النفوس التى تحصنت

وراء الطقوس والشكليات ، وقبل أن تصل إلى حياة الروحانية ، بردت وخمدت واستترت وراء النظام المألوف والصلوات الموضوعة ؟! » (حياة الصلاة الارثوذكسية ص ٨٥ و٨٦ و٤٧١) .

والرد على هذا التساؤل (أو بالحرى هذا التضجر) هو : أن نقود النفوس المذكورة إلى تفهم الكتاب المقدس والعمل بكل ما جاء فيه ، فهو المصدر الإلهى الوحيد ، ليس لمعرفة السبيل إلى الخلاص والحياة الأبدية فحسب ، بل وإلى معرفة السبيل إلى العبادة التى تتفق مع مشيئة الله أيضاً — وقد تحدثنا عما قاله الوحى عن هذه العبادة فى الفصلين الأول والثانى . أما السبيل إلى الخلاص والحياة الأبدية ، فقد تحدثنا عنه فى كتاب « طريق الخلاص » .

فالى الكتاب المقدس وإليه وحده ، يجب أن يرجع كل المخلصين الذين يريدون أن يكرموا الله ويتمتعوا برضاه . وهذا ما نادى به أشعيا النبي قديماً فقال « إلى الشريعة وإلى الشهادة . إن لم يقولوا مثل هذا القول ، فليس لهم فجر » (أشعيا ٨ : ٢٠) . ونادى به الرب يسوع المسيح بعد ذلك ، فقد قال للصدوقيين « تضلون إذ لاتعرفون الكتب » (متى ٢٢ : ٢٩) . وأشار إليه فى العصر الحديث الأب الفاضل متى المسكين فى كتابه (كلمة الله ص ٣) فقال : إن الانسان فقد مركز استقراره ، وهو الآن فى أشد الحاجة إلى قاعدة ثابتة تلهمه الحياة وتقوده وتشير عليه ، وتكون صاحبة سلطان يأتمر بها عن وعى ورضا . على أن تكون من الرصانة والحق ما يمكنها أن ترد عنه كل انحرافات الفكر الحديث وشوائب العلم

والسلوك ... الحاجة إذاً شديدة إلى كلمة الله ، فهى تلك القاعدة بلا نزاع فى صورتها الأصلية الشفافة التى تعلن وتلهم الحق كل الحق — و « كلمة الله » فى صورتها الشفافة ، يراد بها (كما نرى) كلمة الله بمعزل عن الاراء والتقاليد البشرية ، لأن هذه الآراء والتقاليد هى التى تسدل ستاراً كثيفا عليها ، فلا تظهر لدى الكثيرين فى صورتها الأصلية .

فلنرجع كلنا إذاً إلى كلمة الله ، لاسيما وهى التى استودعنا الرسول اليها مع الله ، فقد قال لنا « والان استودعكم ياخوتى لله ولكلمة نعمته القادرة أن تبنيكم وتعطيكم ميراثا من جميع المقدسين » (أعمال ٢٠:٣٢) ، ولذلك إذا أعطيناها السيادة المطلقة على نفوسنا ، فانها ترشدنا فى العبادة والسلوك معا « لأن كل الكتاب هو موحى به من الله ، ونافع للتعليم والتوبيخ ، للتقويم والتأديب الذى فى البر ، لكى يكون انسان الله كاملا متأهبا لكل عمل صالح » (٢ تيموثاوس ٣ : ١٦) ، وليس بعد الكمال شيء آخر . .

وهذا هو ما نادى به الكاتب منذ اكتشف الاختلاف بين الكتاب المقدس وبين القداسات . ولعل الوقت يكون قد جاء لاعادة النظر فى التقاليد الدينية الموجودة بين ايدينا ، وحذف ما لا يتفق منها مع الكتاب المقدس . وذلك لأجل مجد الله وخير النفوس العزيزة . آمين.

المراجع

أولا ـ مراجع ارثوذكسية وكاثوليكية

١ — الدسقولية — جمعية أصدقاء الكتاب المقدس

٢ — قداسات باسيليوس وغريغوريوس وكيرلس ويوحنا ذهبي الفم

٣ — تفسير قداس الكنيسة الارثوذكسية — القس مرقس داود

٤ — شرح وتفسير القداس الإلهى (جزءان) — الأستاذ حبيب اسكندر

٥ — موضوعات القداس الإلهى بمجلة رسالة الكنيسة من ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ — القمص منفريوس عوض الله

٦ — منارة الأقداس فى شرح طقوس الكنيسة القبطية والقداس — القمص منقريوس عوض الله

٧ — اللالىء النفيسة فى شرح طقوس الكنيسة — القمص يوحنا سلامه

٨ — قانون الأرثوذكسية — الشماس جرجس صموئيل عازر

٩ — لماذا أنا ارثوذكسى — الأستاذ نسيم مجلى

١٠ — حياة الصلاة الأرثوذكسية — الأب متى المسكين

١١ — كلمة الله — الأب متى المسكين

١٢ — اللاهوت النظرى للكاثوليك — البريوط الياس الجمبل

١٣ — مختصر اللاهوت الأدبى للكاثوليك — الأب بيرونى

١٤ — الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة — الأسقف أيسوذوروس

١٥ — تاريخ الأمة القبطية — لجنة التاريخ القبطى

ثانيا — مراجع انجيلية .

١ — نظام التعليم فى علم اللاهوت القويم — دكتور جيمس أنس

٢ — ريحانة النفوس فى أصل المعتقدات والطقوس القس بنيامين شنيدر
٣ — المسيحية فى القرون العشرة الأولى الأستاذ فؤاد بهنان
٤ — الكنيسة من البدء إلى القرن العشرين الأستاذ رولندبستن
(٥) مختصر تاريخ الكنيسة اندرو هوفر
٦ — The Sacrament of Eucharist - Bellarmine
٧ — The Jewish Passover —Kopler
٨ — Chrstian Worship Micklen
٩ — Liturgies of the Primitive Church - Wooley
١٠ — The Book of Prayers & Services - De Sela

ثالثا — مراجع عامة

١ — الكتاب المقدس وتفسيره لمفسرين أرثوذكس وإنجيليين .
٢ — The Writers of the Ante Nicene Fathers
٣ — Ency. Britannica.
٤ — Ency. of Religion & Ethics.
٥ — The New Schaff Herzog Ency.
٦ — Dictionary of the Bible
٧ — The International Standard Bible Ency.
٨ — Greek-English Exhaustive Analytical Lexicon
٩ — تاريخ أوروبا فى العصر الحديث.
للاستاذين عمر السكندرى وسليم حسن
١٠ — فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس

بقلم المؤلف

١ — الله - بين الفلسفة والمسيحية .
٢ — الله - ذاته ونوع وحدانيته .
٣ — الله - وطرق إعلانه عن ذاته .
٤ — انجيل برنابا فى ضوء العقل والتاريخ والدين .

٥ — قضية الغفران .
٦ — طريق الخلاص .
٧ — الإيمان والأعمال .
٨ — الخلاص بين الوحى الإلهى والمفاهيم البشرية .
٩ — الطب الروحانى .
١٠ - أسباب الخطيئة ووسائل النهوض منها وتجنبها .

١١ - العشاء الربانى « طبعة مختصرة » .
١٢ - العشاء الربانى « طبعة كاملة » .
١٣ - الكهنوت
١٤ - الصلاة الربانية — تفسيرها ومجال استعمالها .
١٥ - الغريزة الجنسية — وواجبنا إزاءها .
١٦ - المشكلة الشبابية — مضارها وعلاجها .
١٧ - ساعة التجربة — وسبيل النجاة منها .

م
١٥